الفصل الخامس

الدور السياسي والحضـاري للمدارس في مدينتي القاهرة وحلب في العصر الأيوبي

obeikandl.com

obeikandl.com

لعبت المدارس في مدينتي القاهرة وحلب دورا أساسيا في الحياة السياسية والحضارية بكل جوانبها الاجتماعية والاقتصادية والعلمية والثقافية والعمرانية.وقد تمتع علماء المدارس بمكانة سياسية مرموقة ومكانة اجتماعية محترمة بالإضافة إلى مكانتهم العلمية والثقافية في مجال التدريس والمساهمة في ازدهار العلوم الدينية، وساهمت هذه المدارس في جعل مدينتي القاهرة وحلب قبلة للعلماء والفقهاء والطلبة من أنحاء العالم الإسلامي ، وكذلك ساعدت على تنظيم المدينة من الناحية المعمارية والاجتماعية، حيث تطور فن بناء المدارس عما كان عليه من قبل ، كذلك شغلت دورا سياسيا من خلال تدخل علمائها لدى الحكام من خلال إبداء الرأي والمشورة في بعض الأمور السياسية وكذلك من خلال شغل بعض العلماء مناصب هامة في الدولة كمنصب الوزير و منصب القاضي وغيرها.

كانت المدرسة عبارة عن ملتقى بين العلماء أنفسهم والعلماء والحكام والطلبة ، وكذلك ملتقى للطلبة من مختلف الأقاليم الإسلامية، الأمر الذي أدى إلى تمازج واندماج بين الطلبة والتعرف على بعضهم البعض في العادات والتقاليد ، مما كان له أثرا هاما في بقاء و تعزيز الوحدة الإسلامية الثقافية رغم الفرقة السياسية بين حكام الأقاليم الإسلامية. لذلك يمكن القول بأن المدارس وعلمائها كانت تقوم بأداء أهداف سياسية وحضارية وهذا ما جعل الأيوبيين يعتمدون على المدارس بشكل أساسي في تحقيق أهدافهم التي لم تتوقف عند حد القضاء على المذهب الشيعي و أحياء المذهب السني بل تعدتها إلى اعتبار أن تلك الخطوة بمثابة مرحلة أولى في إعداد المجتمع الإسلامي لمواجهة الخطر الصليبي . وذلك عن طريق تحويل انتماءاتهم الدينية والثقافية إلى مركز الخلافة العباسية ببغداد وسوف نستعرض في هذا الفصل أثر المدارس وعلمائها في المجال السياسي والحضاري في الفترة الأيوبية في مدينتي القاهرة وحلب :

obeikandl.com

أولا :الدور السياسي للمدارس وعلمائها في مدينتي القاهرة وحلب :

كان إنشاء المدارس في الأساس له سبب سياسي، وذلك في أجل محاربة المذهب الشيعي ونشر المذهب السني وذلك من العصر السلجوقي، وقد أنشئت المدارس في حلب والقاهرة من أجل هذا الغرض بالدرجة الأولى، فقد بنيت مدراس بكثرة في مدينة القاهرة من أجل محاربة المذهب الشيعي الاسماعيلي مذهب الدولة الفاطمية التي حكمت مصر وجاء الأيوبيون ليقضوا على هذه الدولة سياسيا وقد نجحوا في عام 567هـ/ 1171م ، وبقي نشر مذهب دولتهم وهو المذهب السني. وكانت المدارس هي الأداة والوسيلة لنشر هذا المذهب وتثقيف المجتمع المصري،وتشير حركة إنشاء المدارس بمصر الأيوبية إلى الدور الذي شغلته تلك المؤسسات في مواجهة هذا الخطر [1] .

إن نشر المذهب السني ساهم في توجيه سياسة الدولة، فالمدرسة بما تضمه من علماء وفقهاء وطلبة كان الحكام الأيوبيون يحسبون لها حسابا،بل كان الحكام بالأساس ينشئون المدارس من أجل عالم من علماء أو من الفقهاء،وهذا ما حدث في مدينتي حلب والقاهرة.

وثمة ملحوظة هامة أبداها بعض الباحثين المحدثين، تتعلق بأماكن المدارس التي شيدها صلاح الدين بمصر والقاهرة، وهي أنها كانت مجاورة لأماكن العبادة والتبرك القديمة عند المصريين مثل جامع عمرو بن العاص ، وضريح الإمام الشافعي ، والمشهد الحسيني ، مما يوحي بأن صلاح الدين قد حاول ربط المدارس السنية الجديدة بأماكن العبادات التي لها قداسة واحترام في نفوس المصريين فضلا عن إكساب الشهرة لمدارسه نتيجة لارتباطها بأسماء هذه الأماكن [2] .

1- اندريه ريمون، القاهرة تاريخ حاضرة , ص99.

2- أحمد فؤاد سيد، تاريخ مصر الإسلامية زمن سلاطين بني أيوب (567- 648هـ)، ط1, مكتبة مدبولي، القاهرة 2002م, ص86 ؛ عبد الغني عبد العاطي، التعليم في مصر, ص57.

Openkanal.com

كان العلماء في وسط المجتمع الإسلامي ليسوا مجرد فئة متعلمة تعيش لذاتها، وإنما هم قوة مؤثرة في التحولات التي تحدث داخل المجتمع، فالأنظمة الحاكمة تملك التغير السياسي، ولكن العلماء يملكون التغير الاجتماعي والاقتصادي والعلمي والثقافي وأيضا السياسي، لهذا لم يكن العلماء بعيدين عن تغير الأوضاع من حالة الهزيمة إلى حالة النصر على الصليبين، بل إن إعداد الأمة على يد العلماء كان سببا في وجود جيل القادة من أمثال نور الدين محمود زنكي وصلاح الدين الأيوبي [1].

ومن هذا المنطلق فإن أثر العلماء في المجتمع لم يكن خافتا، وإنما كان مؤثرا في مجالات شتى في العلاقة بالحكام سلبا أم إيجاباً ومجال المشاركة أو المعالجة لما يحدث في المجتمع من مظاهر تحتاج إلى إصلاح سواء كانت اجتماعية أو اقتصادية أو سياسية، أو في مجال الوقوف أمام الأفكار التي تعرض المجتمع للهدم أو في المشاركة في الجهاد ضد الصليبين [2].

سوف نستعرض جانب من علاقة العلماء بالحكام و أثرهم في اتخاذ القرار السياسي والمشورة في الحكم وقد ظهر في مدينتي القاهرة وحلب جلة من العلماء الذين كان لهم أثر في السياسة الأيوبية وقد شغل بعضهم مناصب سياسية وبعضهم عمل كسفير للسلاطين إلى الخلافة العباسية وإلى بعض حكام الدول الإسلامية والحكام الأوروبيين، وقد أخذ الأيوبيون مهمة تبني تنفيذ المشروع الزنكي في إعلاء شأن هيئة العلماء والفقهاء، وتشجيعهم لتقديم مادتهم الدينية والعلمية لتثقيف المجتمع الشامي والمصري لمنع توغل التيارات الشيعية بينهم." وحيث أن صلاح الدين بن أيوب المؤسس لم يقم دولته على الأداة العسكرية،وما أبداه من براعة في هذا الجانب، ولكن الأداة الثانية التي مثلها الفقهاء والعلماء قد نالت جانبا كبيرا في تشكيل سيرته السياسية والمذهبية بل جعلهم أعوانه في السفر والترحال والمشورة

1- عبد الرحمن محمد الشجاع، تاريخ اليمن في الإسلام حتى نهاية القرن الرابع الهجري، ط3، دار الفكر المعاصر, صنعاء 1999م, ص255-262 ؛ ماجد عرسان الكيلاني، هكذا ظهر جيل صلاح الدين وهكذا عادت القدس, المعهد العلمي للفكر الإسلامي, فرجينا, أمريكي 1994م، ص40-41.

2- رضوان الليث، الحياة العلمية, ص205.

ليشكل منهم حلقة الاتصال في بناء الوحدة السياسية والمذهبية ليس في دمشق وإنما في البلاد الشامية والمصرية رافدا لما أبداه مع جنده [1]"ومما قاله صلاح الدين "أني ما ملكت البلاد بسيوفكم بل بقلم القاضي الفاضل [2]" .

شغل العلماء والفقهاء دورا سياسيا في القاهرة وحلب نذكر منهم: نجم الدين الخبوشاني فيذكر لنا السبكي[3] من أخباره " أن تقي الدين عمر بن أخي السلطان كان له مواضع يباع فيها المزر[4] فكتب الشيخ ورقة إلى صلاح الدين يقول فيها: أن هذا عمر يبيع المزر فسيرها صلاح الدين إلى عمر، وقال: لا طاقة لنا بهذا الشيخ فأرضه فركب إليه فقال له حاجبه قف بباب المدرسة حتى أسبقك إليه فأوطئ لك، فدخل وقال : إن تقي الدين عمر ليسلم عليك فقال الشيخ: بل شقي الدين لا سلم الله عليه ، فقال: انه يعتذر و يقول: ليس لي موضع يباع فيه المزر، فقال : يكذب، فقال: إن كان هناك موضع مزر فأرناه. فقال الشيخ: أدني وأمسك ذؤابته وجعل يلطم على وجهه وخديه ويقول : لست مزارا فأعرف مواضع المزر فخلصوه من يده وخرج إلى تقي الدين عمر وقال: فديتك بنفسي".

تولى كثير من العلماء والفقهاء في القاهرة منصب قاضي القضاة[5] مثل العالم صدر الدين عبد الملك بن درباس الهذباني الشافعي [6]،الذي عينه صلاح الدين الأيوبي في القضاء والحكم

1- سبط ابن الجوزي، مرآة الزمان في تاريخ الأعيان, مطبعة مجلس دائرة المعارف العثمانية , حيدر آباد, الدكن , 1951م,ج8,ق2, ص472.

2- المصدر نفسه، ج8, ق1, ص327 ؛ جمال محمد عريكيز، فقهاء الشام في مواجهة الغزو الصليبي, ط1, عين للدراسات والبحوث الإنسانية والاجتماعية, القاهرة 2006م، ص232.

3- طبقات الشافعية الكبرى، ج6، ص16-17 ؛ سعاد ماهر، مساجد مصر، ج2، ص176 ؛ أيمن سلام، المدارس الإسلامية في مصر، ص190.

4- المزر، بكسر الميم وهو نبيذ يتخذ من الذرة وقيل من الشعير والحنطة.
(ابن منظور، لسان العرب, ج7, ص19).

5- قاضي القضاة : وجدت وظيفة قاضي القضاة في أيام الحكم الفاطمي ، وفي عهد العزيز ثاني الخلفاء الفاطميين في مصر ، وكان مقره في القاهرة ، وكان قبل الفاطميين تابعا لبغداد وكان تعيينه في أيام الفاطميين من الاسماعيلية. وفي عهد الوزير احمد ين الأفضل عين لكل مذهب قاضي قضاة ، فكان قاضي قضاة الشافعي وآخر مالكي وثالث اسماعيلي ورابع من الأمامية ، ولما تولى صلاح الدين الأيوبي الوزارة للعاضد أخر خلفاء الفاطمية اكتفى بقاضي قضاة واحد من الشافعية وظل ذلك إلى عصر المماليك، كان تعين قاضي القضاة من قبل السلطان في العصر الأيوبي. (القلقشندي ، صبح الأعشى ، ج15 ، 266)

6- ولد سنة 516هـ/1122م ، وما بمصر سنة 605هـ/ 1208م ، تفقه بحلب و تولى منصب قاضي القضاة بالديار المصرية . (السيوطي، حسن المحاضرة ، مج1 ، ص351).

بمصر والقاهرة[1]،فجعل صدر الدين القضاة في سائر الديار المصرية شافعية فاشتهر مذهب الشافعية، و اندرس مذهب الاسماعيلية بالكلية وانمحى أثره ، ولم يبق أحد من أهل البلاد يمكنه التظاهر به[2] .

برزت أسرة شيخ الشيوخ[3] ولعبت دورا سياسيا في العصر الأيوبي في مصر وقد برز من هذه العائلة عدد من العلماء نذكر منهم: الشيخ صدر الدين بن حموية،وقد تعرف عليه صلاح الدين الأيوبي سنة 567هـ/1180م عندما أرسله الخليفة العباسي أبو العباس أحمد الناصر لدين الله (575هـ -622هـ/ 1180م –1225م) برسالة إلى صلاح الدين وهو بمصر، وقد أنس صلاح الدين من صدر الدين علما وحنكة سياسية في هذه المقابلة،مما دفعه إلى إقراره في مشيخة دمشق عقب وفاة والده عماد الدين عمر المتوفى 577هـ/ 1181م[4] .

كان له أولاد أربعة نجباء وهم : عماد الدين عمر ، كمال الدين أحمد ، معين الدين حسن، وفخر الدين يوسف، وقدشغلوا دورا كبيرا في الحياة السياسية وبلغوا في الأيام

1- البنداري ، سنا البرق الشامي ، تح فتحية النبراوي ، مكتبة الخانجي ، القاهرة 1979م ، ص57.

2- ابن واصل، مفرج الكروب، ج1, ص198.

3- تنسب هذه الأسرة إلى حمويه بن علي يقال أنه من ولد رزم بن يونان أحد قواد كسرى أنوشروان ، وولي قيادة جيش نصر بن نوح بن سامان ودبر دولته وهو جد شيخ الإسلام محمد و أخيه أبي سعد بني حمويه بن محمد بن حمويه وكان محمد وأبو سعد من قادة خراسان فتركا الدنيا و اقبلا على الآخرة ، وهذا يدل على أن أصل هذه الأسرة فارسي ، واشتهر من أحفادهم عماد الدين عمر بن علي بن محمد بن حمويه بالعلم والصلاح ، رحل إلى دمشق في زمن الملك العادل نور الدين محمود الزنكي (541–569هـ/1146–1173م) وولاه مشيخة خانقاه دمشق ، وقدم عليه ابنه شيخ الشيوخ صدر الدين علي فلما مات عمر سنة 577هـ/ 1181م بدمشق أقر السلطان صلاح الدين الأيوبي ولده صدر الدين محمد موضعه وصار شيخ الشيوخ بدمشق ، فتزوج بابنة القاضي شهاب الدين بن أبي عصرون ورزق منها عشرة بنين منهم : عماد الدين عمر وفخر الدين يوسف وكمال الدين أحمد ومعين الدين حسن ، وقدم صدر الدين على القاهرة وولي مشيخة خانقاه سعيد السعداء، وتسلم أولاده من بعده مشيخة هذا الخانقاه بالإضافة إلى مناصب أخرى بالدولة. (المقريزي، الخطط، ج3 ، ص53) .

4- حامد زيان، العلماء بين الحرب والسياسة ، ص12 ؛

- Gottschalk (H.L) , Awlad el shaykh , Encyclopadia of Islam , Vol1 .pp765-76.

obeikandl.com

الكاملية غاية التقدم حتى نهاية العصر الأيوبي[1] نقل صلاح الدين نشاط صدر الدين إلى مصر وعهد إليه بمشيخة "سعيد السعداء" الذي سبق التعريف به ، وعهد إليه أيضا بالتدريس بالمدرسة الصلاحية – التي تقع بجوار الإمام الشافعي عام 587هـ/1191م[2] .

تولى صدر الدين كثيرا من المهام السياسية نذكر منها: أرسله الملك العادل الأيوبي إلى الخليفة العباسي الناصر لدين الله سنة 614هـ/ 1217م، يحمل أنباء عن وصول الفرنجة إلى عكا "الحملة الصليبية الخامسة"، وحث الخليفة على استثارة همة المسلمين للنهوض من أجل الجهاد ضد الفرنجة[3] .

ومن المهام التي قام بها شيخ الشيوخ صدر الدين تلك الرسالة الخطيرة التي حملها من الملك الكامل محمد نائب السلطنة بالديار المصرية إلى والده السلطان العادل الأيوبي ، أثناء مقامه بعالقين عام 615هـ/1218م التي تفيد استيلاء الصليبين على برج السلسلة[4] وهو قفل مصر وهذا يدل على مدى ما وصل إليه صدر الدين بن حموية من مكانة كبيرة وثقة عالية عند حكام مصر ، فهذه الأخبار العسكرية لا يعهد بها إلا لمن يكون محل ثقتهم وقادرا على حفظ هذه الأمانة[5]،وفي سنة 617هـ/1220م قام بسفارة إلى دار الخلافة العباسية ببغداد، من قبل السلطان الكامل محمد (615هـ-635هـ/ 1218- 1237م) مستنجدا بالخليفة

1- ابن واصل ، مفرج الكروب ، ج3 ، ص257.

2- السيوطي، حسن المحاضرة ، مج2 ، ص225 ؛ حامد زيان ، العلماء بين الحرب والسياسة، ص15.

3- ابن واصل، مفرج الكروب،ج3، 257 ؛ حامد زيان، العلماء بين الحرب والسياسة ، ص17-18.

4- برج السلسلة : هذا البرج كان قفل الديار المصرية ، وذلك انه كان برجا عاليا ، وفي ناحيته سلسلة وسلسلة تمتد إحداهما على النيل إلى دمياط ، تمتد الأخرى على النيل إلى الجزيرة يمنعان من عبور المراكب إلى بحر النيل المالح. (الحنبلي ، شفاء القلوب ، ص219)

5- ابن واصل، مفرج الكروب، ج 4, ص15016 ؛ المقريزي، السلوك لمعرفة دول الملوك ، تح محمد عبد القادر عطا ، بيروت 1997م ، ج1، ق1، ص190 ؛ حامد زيان، العلماء بين الحرب والسياسة، ص18-19.

obeikandl.com

العباسي وأمراء المسلمين للوقوف جميعا يدا واحدة ضد الصليبين الذين استولوا على دمياط، وقام أيضا بعد زيارة بغداد بجولة دبلوماسية على البلاد الإسلامية الشرقية، بقصد حث مختلف الأمراء المسلمين على التكاتف والوقوف صفا واحدا تجاه الحملة الصليبية الخامسة إلا أن الشيخ صدر الدين توفي أثناء سفارته سنة 617هـ/1220م بالموصل [1].

عندما استلم الملك الكامل محمد الحكم في مصر قرب أولاد شيخ الشيوخ الأربعة[2] عماد الدين عمراً كمال الدين أحمد معين الدين حسناً فخر الدين يوسف. كان عماد الدين عمر أكبر أخوته ولد عام 581هـ/1185م نال قسطا من العلم ودرس مكان والده في المدرسة الصلاحية وبالمشهد الحسيني وبمشيخة الشيوخ بالديار المصرية،وكان يجالس السلطان الكامل ويتحدث معه في أمور العلم وكذلك الأمور السياسية[3] ومن أبرز مهامه السياسية كانت: أرسله السلطان الكامل سنة 633هـ/1235م مبعوثا إلى الخليفة العباسي أبو جعفر المنصور المستنصر بالله (623هـ-640هـ/ 1226-1242م)وأيضا أرسله مبعوثا إلى حكام الدول الإسلامية، ولعب دورا كبيرا في السياسة والخلافات بين أولاد البيت الأيوبي بعد وفاة الملك الكامل محمد عام 635هـ/1237م ودفع في سبيل ذلك حياته حيث قتل بدمشق سنة 636هـ/1238م،و أقيمت له جنازة عظيمة [4].

تولى بعده أخاه كمال الدين مشيخة الصوفية بالديار المصرية، وولي التدريس بالمدرسة الناصرية التي تقع بجوار الجامع العتيق بمصر، وكذلك التدريس بالشافعي بالقرافة، وكانت

---

[1]- السيوطي، حسن المحاضرة، ج2، ص409 ؛ المقريزي، الخطط، ج3، ص53-54 ؛ حامد زيان، العلماء بين الحرب والسياسة ، ص19-20.

[2]- حدث أن أرضعت أم أولاد شيخ الشيوخ وزوجة صدر الدين وهي ابنة القاضي شهاب الدين بن أبي عصرون الملك الكامل محمد فصار أخا لهم بالرضاعة، ولم ينس الكامل عندما استلم السلطة بمصر هذه القربة. (ابن واصل، مفرج الكروب ، ج5، 170)

[3]- الدمشقي، شذرات الذهب، ج5، ص181-182 ؛ ابن العميد، أخبار الأيوبيين، ص10-15 ؛ حامد زيان، العلماء بين الحرب والسياسة ، ص22.

[4]- ابن واصل، مفرج الكروب، ج5، ص202 ؛ المقريزي، الخطط، ج3، ص53-55.

openkandil.com

له جهود علمية ودينية بمصر [1]،وقام بمهام سياسية كثيرة سنة 624هـ/1226م ، حتى يثني عزم المعظم عيسى عن التحالف مع الخوارزمية، وقام بعدة محاولات دبلوماسية قام بها سفراء الملك الكامل ومن بينهم كمال الدين أحمد،وتولى وظيفة نيابة حران والجزيرة[2] في عام 627هـ/1229م،وتسلم منصب الوزارة بالديار المصرية وكان ذلك بعد عودته من حران التي قام بها خير قيام [3] .

اعتمد عليه الملك الصالح نجم الدين أيوب (637-647هـ/1229-1249م) في كثير من معاركه ففي سنة 638هـ/1240م أرسله لتأديب الناصر داوود صاحب الكرك ومن معه ولكنه خسر المعركة ووقع أسيرا بيد الناصر داوود ولكن أطلق سراحه بعد فترة وجيزة[4] وعاد إلى مصر ومن ثم تولى قيادة الجيش المصري المقيم بغزة عامي 639هـ، 6340هـ/ 1241،1242م للضرب على أيدي الخارجين عن طاعة الملك الصالح، واستمر مقيما بغزة حتى وفاته في 13 من شهر صفر عام 640هـ/1242م على اثر تناوله طعام مسموم [5] .

كذلك يعتبر الشيخ معين الدين حسن مثلا ظاهرا لعالم فقيه متصوف جمع في يديه بين البراعة في العلم والأدب والمهارة في مختلف فنون الحرب والقتال والحنكة السياسية والذكاء والدبلوماسية وبين الزهد والخشوع والإيمان ،و ساعد ذلك على تقلده عدة وظائف مختلفة دينية وعلمية وعسكرية وسياسية. وكان قد تولى مشيخة الشيوخ بالديار المصرية ودرس

1- المقريزي، الخطط، ج3، ص54.

2- حران ، بفتح أوله و تثقيل ثانيه كورة من كور ديار مضر. (البكري الأندلسي، معجم ما استعجم ، ج1، ص435).

3- ابن واصل، مفرج الكروب ، ج4، ص231 ؛ المقريزي، الخطط، ج2، ص54 ؛ حامد زيان، العلماء بين الحرب والسياسة ، ص23-24 ؛ ابن العميد، أخبار الأيوبيين، ص10-15 .

4- ابن واصل، مفرج الكروب، ج5، ص277، 301.

5- المقريزي، الخطط، ج3، ص54 ؛ حامد زيان، العلماء بين الحرب والسياسة ، ص34-35.

Obeikandl.com

بالمشهد الحسينيأ واستعان به الملك الكامل محمد ومن بعده الملك الصالح أيوب في تصريف كثير من شئون الدولة السياسية والحربية[1]،من المهام السياسية التي قام بها عندما بعثه الملك الكامل محمد إلى مقر الخلافة العباسية ببغداد معزيا في وفاة الخليفة أبي نصر محمد الظاهر بأمر الله العباسي 622هـ/1225م ومهنئا بخلافة ابنه أبي جعفر المنصور المستنصر بالله 623-640هـ/1226-1242م ، وألقى كلمة بليغة هناك، وناب عن الكامل في آمد[2]،وتكمن أهميته حين استوزره الملك الصالح نجم الدين أيوب، وسلم إليه أمور المملكة وذلك عام 637هـ/1226م فقام بها خير قيام، وجهزه على العساكر في هيئة الملوك إلى دمشق فقاتل الصالح اسماعيل بن العادل حتى ملك دمشق عام 643هـ/1245م واستولى على دمشق و أعمالها وحصونها ودبرها تدبيرا جيدا وبقي حاكم دمشق حتى شهر رمضان عام 643هـ/1246م حيث توفي بدمشق ودفن بها[3] .

وأخيرا فخر الدين يوسف بن شيخ الشيوخ وهو الابن الأصغر من أسر شيخ الشيوخ، ويبدو أن فخر الدين اختلف عن اخوته في انه لم يتقيد بمشيخة والصوفية والعلوم الدينية، وإنما توسع في بقية العلوم الأخرى الفلسفية و الحكمية وشارك في كل فن ، والتقى بفكره مع الملك الكامل محمد الأيوبي حيث شغف كلاهما بدارسة العلوم[4]،من أبرز المهام السياسية التي تولاها: عندما خرج الملك الكامل إلى دمشق لقتال ابن أخيه الناصر داوود سنة

1- حامد زيان، العلماء بين الحرب والسياسة ، ص36 ؛
Gotstchalk , op, vol 1, p766.

2- المقريزي، الخطط، ج3، ص54 ؛ حامد زيان، العلماء بين الحرب والسياسة ، ص37-38. آمد، وهي اعظم مدن ديار بكر وأجلها قدرا وأشهرها ذكرا، وهو بلد قديم حصين مبني بالحجارة السود على نشز نهر دجلة.(الحموي، معجم البلدان، ج1، ص56-57).

3- المقريزي، الخطط، ج3، ص54 ؛ ابن العميد، أخبار الأيوبيين، ص10-15 ؛
حامد زيان، العلماء بين الحرب والسياسة ، ص40-45.

4- ابن واصل، مفرج الكروب ،ج5، ص169 ؛ حامد زيان، العلماء بين الحرب والسياسة ، ص46.

opelkanal.com

625هـ/1227م فعهد إليه الكامل بتحصيل الأموال وتدبير أمور المملكة في غيابه، و أناط إليه مهمة اختيار من يثق فيهم لتولي الدواوين[1] .

وتولى فخر الدين سفارة للملك الكامل إلى فردريك الثاني 609-648هـ/ 1212-1250م حاكم الإمبراطورية الرومانية المقدسة، واستقبله بمدينة بالرمو بجزيرة صقلية، وقد اعجب الإمبراطور بثقافة الأمير فخر الدين كثيرا و أقام معه علاقات وصداقات، وسفارته إلى الخليفة العباسي أبو جعفر المنصور المستنصر بالله سنة 626هـ/1227يخبره بالتطورات الجديدة[2]،وقام فخر الدين بمهام حربية حيث تقلد في بعض الفترات وظيفة مقدم العساكر منها حين أوفده الملك الكامل على رأس جيش عام 629هـ/1231م إلى مكة لمساندة أميرها طغتكين ، بعد أن صمم في الاستيلاء عليها نور الدين بن علي بن رسول أول ملوك الدولة الرسولية باليمن [3]،وكذلك قام على رأس الجيش المصري بتكليف من الملك الصالح نجم الدين أيوب لتأديب الخوارزمية الذين اتفقوا من الناصر داوود الذي كان معاديا للصالح نجم الدين وحقق النصر الأمير فخر الدين سنة 644هـ/1246م [4]ولم تقتصر جهود الأمير فخر الدين الحربية عند هذا الحد، بل قاتل الصليبين وذلك عندما عهد إليه الملك الصالح نجم الدين أيوب عام 645هـ/1247م بالاستيلاء على عسقلان وطبرية واستولى فخر الدين على طبرية وهدم ما استجده بها الفرنج من قلاع، واستولى على عسقلان[5] أيضا[6] أما الدور الأهم في قتال الصليبين كان عام 647هـ/1249-12450م بعد وصول الحملة الصليبية

---

[1]- ابن العميد، أخبار الأيوبيين، ص10-15 ؛ حامد زيان، العلماء بين الحرب والسياسة ، ص54.

[2]- المرجع نفسه، ص67-68.

[3]- المرجع نفسه، ص74.

[4]- ابن واصل ، مفرج الكروب، ج5، ص350.

[5]- عسقلان، بفتح أوله وإسكان ثانيه بلد معروف من مدن فلسطين الساحلية، واشتقاقه من العساقيل وهو السراب أو من العسقيل وهو الحجارة الضخمة.(البكري الأندلسي، معجم ما استعجم، ج3، ص943).

[6]- ابن العميد، أخبار الأيوبيين، ص14-17 ؛ حامد زيان، العلماء بين الحرب والسياسة ، ص80.

السابعة إلى مصر ، وأثناء وفاة الملك الصالح نجم الدين بالمنصورة في 15شعبان عام 647هـ/1249م ، فتولى الأمير فخر الدين تدبير السلطنة وقيادة الجيش المصري المرابط بالمنصورة ، وتحمل عبء مقاومة حملة لويس التاسع ملك فرنسا المرابطين بدمياط، وكانت أواخر أيامه في المنصورة حيث قتله الصليبيون في عام 647هـ/1250م ونال الشهادة ، وكان آخر أخوته موتا[1] وطويت بذلك صفحة من حياة أسرة لعب أفرادها دورا بارزا في مجال العلم والتصوف والسياسة والحرب.

قام بعض العلماء كذلك بترك التدريس والذهاب إلى الجهاد في ثغر دمياط عندما استولى عليه الصليبيون سنة 615هـ/1218م وهي ما تسمى بالحملة الصليبية الخامسة منهم نجم الدين عبد الله بن شاس مدرس المدرسة القمحية وبقي هناك حتى توفي سنة 616هـ/1219م[2] .

أما عن دور علماء وفقهاء المدارس بمدينة حلب نذكر أشهرهم: ابن شداد وهو بهاء الدين أبو المحاسن يوسف بن رافع ولد سنة 539هـ/1145م بالموصل ، وتوفي بحلب سنة 632هـ/1239م، شغل بهاء الدين بن شداد عدة مناصب علمية من إدارة للمدارس و إدارية مثل قضاء حلب وكذلك قام بمهام سياسية حاول من خلالها فض النزاعات بين أبناء البيت الأيوبي ، فقد عينه الملك صلاح الدين الأيوبي قاضيا لعسكره وللقدس الشريف وظل بهاء الدين بن شداد في خدمته وملازما له لا يفارقه ليلا أو نهارا إلى أن ادركته الوفاة ، وبعد وفاة صلاح الدين الأيوبي اتجه ابن شداد إلى حلب وشغل دورا كبيرا في التقريب بين الاخوة – أولاد صلاح الدين الأيوبي- وكانوا جميعا يرجعون إلى رأيه ويستمعون إلى نصحه ، وقد عينه

---

[1]- أبو الفدا، المختصر، ج3، ص217-218 ؛ ابن العبري، تاريخ مختصر الدول، ط1، دار الكتب العلمية، بيروت 1997م، ص226 ؛ حامد زيان، العلماء بين الحرب والسياسة ، ص80-84.

[2]- ابن خلكان، وفيات الأعيان، ج3، ص61 ؛ أيمن سلام، المدارس الإسلامية في مصر، ص192.

obeikandl.com

الملك الظاهر صاحب حلب قاضيا في مدينة حلب سنة 591هـ/1194م ، وكذلك مشرفا على أوقافها، وكان دائم التنقل بين مصر والشام للتوفيق والمصالحة بين أفراد البيت الأيوبي، ففي سنة 592هـ/1195م،سيره الملك الظاهر إلى الملك العزيز صاحب مصر محملا بالهدايا لكسب وده ، وكذلك سيره الملك الظاهر إلى مصر سنة 613هـ/1216م، يعتذر من الملك العادل على تحالفه مع عز الدين كيكاوس، ولم يتم هذا التحالف لأن الملك العادل استهجنه، ولما خطب الملك العزيز صاحب حلب ابنة الملك الكامل محمد صاحب مصر كان ابن شداد على راس الوفد الذي سافر إلى القاهرة في سنة 629هـ/1231م، لإحضار العروس ومرافقتها إلى حلب[1].هذا يدل على الدور الذي لعبه ابن شداد لدى حكام حلب وتكليفه بمرافقة العروس من القاهرة يدل على الثقة الكبيرة فيه من قبل حكام حلب.

نذكر بالإضافة إلى ابن شداد عالم آخر كان له دورا بارزا في الحياة العلمية والدينية والسياسية هو الصاحب عمر بن أحمد بن هبة الله ....ابن أبي جرادة "ابن العديم" ولد في حلب سنة 588هـ/1192م ، وتوفي في القاهرة سنة 660هـ/1261م ، وقد ساهم في الحياة السياسية، وكان مقربا من ملوك حلب فقد كان يحضر مجلس الملك الظاهر غازي ، فيكرمه ويقربه بالرغم من صغر سنه. تولى أول عمل رسمي له في سنة 616هـ/1219م حيث تولى مهمة التدريس بالمدرسة الشاذبختية التي كانت من أجل مدارس حلب وأحسنها، وعلا نجم ابن العديم بالسياسة في حلب حتى وصل إلى مرتبة الوزير، وسفير عن ملوك حلب إلى ملوك الدول المجاورة في الشام والجزيرة وآسيا الصغرى، وإلى الخليفة العباسي في بغداد، وإلى سلاطين القاهرة[2] .

---

[1]- ابن واصل، مفرج الكروب، ج3، ص236، 248 ؛ ابن العديم، زبدة الحلب، ج2، ص608-609 ؛

ابن العجمي الحلبي، كنوز الذهب ، ج1، ص289 ؛

ابن شداد بهاء الدين ، من مقدمة كتاب النوادر السلطانية، تح جمال الدين الشيال، ص3-5.

[2]- الحموي، معجم البلدان، ج16، ص44، ابن العديم، زبدة الحلب، ج1، ص14-16، كمال بدور، مملكة حلب، ص218،23.

obeikandi.com

نلاحظ مما سبق كيف شغلت المدارس وعلمائها في مدينتي القاهرة وحلب في العصر الأيوبي دورا كبيرا في المجالات العلمية والسياسية ، حتى أنهم شاركوا في رسم سياسة الدولة والمشورة وتقديم النصائح للحكام في القاهرة وحلب ، واعتماد الحكام في مدينتي القاهرة وحلب في حل المشاكل فيما بينهم ، وعملوا كسفراء لهم لدى الخلافة العباسية والدول المجاورة وحتى إلى حاكم الإمبراطورية الرومانية المقدسة ، وكذلك الاستعانة بهم في أمورهم الخاصة. ولكن ما يمكن قوله أن المدارس وعلمائها في مدينة القاهرة قد شغلوا دورا أكبر من مدارس وعلماء مدينة حلب لكون القاهرة هي العاصمة الأساسية للأيوبيين ، وكذلك لموقعها الجغرافي والسياسي فقد اتجه الصليبين منذ النصف الثاني من القرن السادس والنصف الأول من القرن السابع الهجريين إلى توجيه حملاتهم إلى مصر لأهميتها الاقتصادية والإستراتيجية وهذا أدى إلى اعتماد حكام مصر على المدارس وعلمائها في حث الناس على الجهاد وعمل بعض العلماء كقواد للجيوش تحدثنا عنهم فيما سبق.

ثانيا :الدور الحضاري للمدارس وعلمائها في القاهرة وحلب :

أ- الدور الاجتماعي والاقتصادي :

أصبحت المدارس هي المهاد التي تتربى فيها الطبقة الوسطى وتنمو ، وهي الطريق الذي يلجأ إليه الفقراء لكي يفيدوا من مواهبهم ويحسنوا مستواهم وينتقلوا إلى الطبقة الوسطى ، وربما أصبح الأذكياء منهم من المياسير أو الأغنياء أو أصحاب الوظائف والجاه ، وبالفعل كانت لهذه المدارس وظيفة اجتماعية كبرى وأثر مباشر في تكوين مجتمع المدن في الشام أولا ثم في مصر على أيام الأيوبيين[1].تربية الأمة هي المهمة الجليلة التي تقع على عاتق علماء الأمة ٱ فالتربية كما يعرفها فلاسفة التربية الحديثة هي " عملية نقل للعادات والمطامح والمشاعر والأهداف والمثل العليا، من جيل ذاهب إلى جيل قادم. إنها عملية اتصال بين

[1]– حسين مؤنس، نور الدين محمود سيرة مجاهد صادق ، ط2، الدار السعودية للنشر والتوزيع ، الرياض 1984م، ص370.

الأجيال"[1] وتربية الأجيال والمجتمع من أهم الآثار الاجتماعية التي نهض بها علماء المدارس في مدينتي القاهرة وحلب، وعلماء الأمة قاموا بهذا الدور التربوي الواضح خاصة أن الضعف الذي أصاب الأمة أنتج انهزاما ساحقا أمام قوة الصليبين مما أدى إلى أفاقة العلماء الذين سعوا إلى أيقاظ الأمة من غفوتها فعملوا على تربية الأمة التربية الجهادية ، تربية الجهاد في سبيل الله التي تقوم على أسس اعتقادية واضحة[2] .

أدرك العلماء خطورة الوضع السيئ الذي كان في صالح الصليبين وبدؤوا يعملون على إعادة بناء العقيدة الإسلامية لدى الإنسان المسلم وتهذيب و إصلاح النفس والسلوك وصقلها، حتى يكون المسلم راسخ العقيدة لا تشوبه أي شائبة تغير من صفاته ، وهذا الأعداد استمر عقودا من السنوات واتخذ الإصلاح عدة وسائل للوصول إلى الغاية كان من أهم هذه الوسائل: بناء المدارس في كثير من مدن بلاد الشام ومصر وخاصة القاهرة وحلب ، فقد أدت هذه المدارس وعلمائها وظيفتها التربوية والعلمية داخل المجتمع و إعادة بناء العقيدة الإسلامية وترسيخها في أذهان المسلمين وتكوين جيل إسلامي متسلح بسلاح العلم[3] .

وكان لهذه المدارس أثر اجتماعي من خلال تثقيف أفراد المجتمع ونشر العلم بين أفراده وذلك من خلال نشر المبادئ وتنظيف العقيدة الإسلامية وتطهيرها من الرواسب والعادات والتقاليد البالية وكذلك رفع معنويات المجتمع الإسلامي، وخاصة بعد الغزوة الصليبية[4]

---

[1]- عبد الرحمن النحلاوي، التربية الإسلامية والمشكلات المعاصرة، ط1، المكتب الإسلامي ، بيروت 1982م، ص8.

[2]- رضوان الليث، الحياة العلمية، ص220.

[3]- رضوان الليث، المرجع نفسه، ص221-222.

[4]- بدأ الغزو الصليبي للبلاد الإسلامي سنة 493هـ/ 1099م حيث أسسوا أربع إمارات في بلاد الشام (إمارة الرها ،وإمارة إنطاكية ، وإمارة طرابلس ، وإمارة القدس) ثم وجهت بعض الحملات على مصر وكان عدد حملاتهم على البلاد الإسلامية ثمان حملات ، قضى الأشرف خليل السلطان الملوكي على أخر معاقل الصليبيين في بلاد الشام عكا سنة 690هـ/1291م. (شوقي أبو خليل، أطلس التاريخ العربي والإسلامي ، دار الفكر ، دمشق 2001م، ص86،90)

لبلاد الشام وهجماتهم المتكررة على مصر، الأمر الذي أدى إلى ترسيخ روح الانهزامية عند أفراد المجتمع الإسلامي نتيجة هزيمة الجيوش الإسلامية أمام الجيوش الصليبية، وكذلك التفرقة والتشرذم في الجبهة الإسلامية، وتعدد المذاهب الإسلامية الأمر الذي شوه عقيدة المسلم، وكذلك احدث انطباع سيئ على حكامه، والمدارس منذ نشأتها كان لها هدف سياسي هو نشر المذهب الشافعي السني ومحاربة المذهب الشيعي ، ومن ثم تعددت المدارس لكل المذاهب السنية وكان لها هدف اجتماعي أيضا من خلال إعادة بناء عقيدة المسلم الصحيحة وتربيته التربية الجهادية وتطهيره من الروح الانهزامية ، فكانت المدارس تؤدي هذا الدور من خلال علمائها والعلوم التي كانت تدرس بها وقد استقطبت مدارس القاهرة وحلب ودمشق من جميع أنحاء العالم الإسلامي، لما سمعوا عن تسامح نور الدين الزنكي وصلاح الدين الأيوبي وخلفائهم. حتى أن هذه المدارس استقطبت الطلاب أيضا من كل مكان، أفرز هذا كله مجتمع إسلامي متعلم ومتكامل، وهذا كله أدى إلى الانتصار العظيم في معركة حطين سنة 583هـ/ 1187م .

شارك العلماء والفقهاء أفراد المجتمع الإسلامي في محاربة الصليبين أيضا، فهذا الفقيه طاهر بن نصر الله بن جهبل ، مجد الدين الحلبي توفي 596هـ/1199م ، صنف للسلطان نور الدين كتابا في فضل الجهاد، وابن شداد جمع للسلطان صلاح الدين كتابا في الجهاد يجمع أحكامه وآدابه، فكان صلاح الدين يلازم مطالعته. ونجم الدين عبد الله بن شاس مدرس المدرسة القمحية بالقاهرة قد ترك التدريس وتوجه إلى ثغر دمياط بنية الجهاد عندما استولى عليه الصليبيون في سنة 615هـ/1218م، وهي ما تسمى بالحملة الصليبية الخامسة واستمر الشيخ في الجهاد إلى أن توفي سنة 616هـ/1219م [1]

قام علماء المدارس كذلك بالوقوف في وجه الحكام من خلال رفض بعض القرارات التي تمس أفراد المجتمع مثل أبطال المكوس فمثلا: فهذا العالم نجم الدين الخبوشاني أن

[1]– ابن خلكان، وفيات الأعيان، ج3، ص61 ؛ عبد الغني عبد العاطي، التعليم في مصر، ص93 ؛ أيمن سلام، المدارس الإسلامية في مصر، ص192.

صلاح الدين لما خرج لقتال الفرنج جاء الشيخ الخبوشاني إلى وداعه والتمس منه أمورا من المكوس يسقطها عن الناس فلم يفعل ، فقال له الشيخ: قم لا نصرك الله ووكزه بعصاه فوقعت قلنسوة السلطان عن رأسه ثم توجه إلى الحرب فكسر، وعاد إلى الشيخ، فقبل يده وعرف أن ذلك بسبب دعوته[1] .

قام العلماء أيضا برفض كل شيء يزعج المجتمع وقاموا بمحاربتها. فهذا عز الدين بن عبد السلام مدرس المدرسة الصالحية عندما بنى فخر الدين بن شيخ الشيوخ ، وكان من المقربين للملك الصالح نجم الدين أيوب فوق مسجد بناء لطبل خانات وبقيت هنالك فلما هذا عند الشيخ عز الدين حكم بهدم ذلك البناء واسقط فخر الدين ، وعزل نفسه من القضاء ، ولم تسقط بذلك منزلة الشيخ عند السلطان ، واتفق أن بعث السلطان الصالح نجم الدين أيوب 637-647هـ/1240-1249م رسولا من عنده إلى الخليفة المستعصم[2] ببغداد ، فلما وصل الرسول إلى الديوان ووقف بين يدي الخليفة وأدى الرسالة وخرج إليه وسأله هل سمعت هذه الرسالة من السلطان ؟ فقال : لا ولكن أحملها عن السلطان الأمير فخر الدين بن شيخ الشيوخ أستاذ داره، فقال الخليفة إن المذكور أسقطه ابن عبد السلام فنحن لا نقبل روايته[3] .

---

[1]- السبكي، طبقات الشافعية الكبرى، ج6، ص16-17 ؛ أيمن سلام،، المدارس الإسلامية في مصر ، ص189-190.

[2]- هو عبد الله بن منصور بن محمد بن أحمد من سلالة هارون الرشيد ، وكنيته أبو احمد ، آخر خلفاء الدولة العباسية في العراق ، ولد ببغداد سنة 609هـ/1212م ، وولي الخلافة بعد وفاة أبيه سنة 640هـ/1242م ، وبقي في الخلافة حتى دخول المغول بغداد سنة 656هـ/1258م حيث قتل وبموته انقرضت دولة بني العباس في العراق. (خير الدين الزركلي ، الأعلام ، ط6 ، دار العلم للملايين ، بيروت 1984م ، ج4 ، ص284)

[3]- السبكي، طبقات الشافعية الكبرى، ج8، ص211 ؛ أيمن سلام، المدارس الإسلامية في مصر ، ص190-191.

كان العلماء يقومون بالسعي إلى توظيف طلابهم، وكانت سمعة وسعة معارف أستاذ الطالب تلعب دورا كبيرا في توظيف الطالب في مناصب الدولة [1] .

أما الأمر الأخر والأهم فهو تولي علماء المدارس منصب قاضي القضاة فابن شداد تولى القضاء في حلب مدة طويلة، وكذلك ابن العديم في حلب و الخبوشاني والقاضي الفاضل وعز الدين بن عبد السلام في القاهرة.

كانت هنالك علاقة قوية بين الطلاب وأساتذتهم ولعل ما اشترط في المدرس من صفات وقدرات توضح لنا أن هؤلاء الأساتذة كانوا نموذجا طيبا للعلاقة الطيبة مع الدارسين فقد كانوا يطلبون منه أن يكون ملما بالعلوم وأن يكون كثير البحث مع طول أناة ليتسنى له دراسة نفسية من يعهد إليه، ويستطيع بالتالي النزول إلى مستواه ويعمل على الاتصال العاطفي معه [2] وهناك أدلة واضحة على المعاملة التي كان يعامل بها المدرسون الطلبة فها هو العالم الخبوشاني الذي عينه صلاح الدين على المدرسة الصلاحية كان يعامل الطلبة معاملة الأب لأبنائه ويحاول تقصي أخبارهم والسؤال عن مشاكلهم ومحاولة حلها حتى يتفرغوا لطلب العلم، وقد خرج في بعض الليالي يطوف على بيوت الطلبة بالمدرسة فسمعهم يقرؤون القرآن حتى أتى على خلوة فنظر من خلال الباب فرأى صاحب الخلوة وقد وضع الكتاب من يده وأنشد بعض أبيات الشعر التي تنم عن حالته، فلما اصبح النهار سأل الشيخ الخبوشاني الطالب عما به و أخبره بما سمعه منه في الليلة السابقة ، وحل مشكلته [3] وفي ذلك دلالة واضحة على انه لم يكن يهتم بإلقاء الدروس فقط و إنما تعداه ليصبح المربي والمعلم والناصح للطلبة ، وكان المدرسون في المدارس نموذجا يحتذى بهم علما وعملا فلم يكن تأثيرهم وعلاقتهم بالطلبة تتوقف عن الأثر العلمي ، وإنما كانت أخلاق هؤلاء المدرسين

---

[1]- كمال بدور، مملكة حلب، ص212-213.

[2]- عفاف صبرة ، المدارس في العصر الأيوبي، ص187 ؛ أسعد طلس، التربية والتعليم في الإسلام، ص129.

[3]- ابن الزيات ، الكواكب السيارة، ص214-215.

obeikandi.com

نبراسا وهدى سار عليها الطلبة في حياتهم فخرجت هذه المدارس نماذج طيبة من العلماء الذين شغلوا دورا كبيرا في الحياة السياسية والدينية وحتى الحربية وخاصة أثناء الحروب الصليبية وما بعدها [1] .

وبناء المدارس لم يقتصر على السلاطين والأمراء بل ساهم العلماء والفقهاء في بناء المدارس من أموالهم الخاصة، ومن الأموال التي منحها لهم السلاطين ، فهذا ابن شداد منحه الملك الظاهر حاكم حلب إقطاعا كبيرا الذي كان يحصل منه جملة كبيرة من المال فعمر منه مدرسة ثم عمر في جوارها دار حديث وبينهما تربة له [2] وهذا ما حدث في مدينة القاهرة فقد بنى القاضي الفاضل وغيره المدارس من أموالهم الخاصة .

نلاحظ مما سبق أن أوقاف المدارس كانت تشكل موردا اقتصاديا للمدرسة ومن فيها من مدرسين وطلبة وموظفين ، فالطالب كان يأخذ مرتبا شهريا وكسوة وطعام وهو في المدرسة ، وهذا يخفف من المتاعب المالية على الطالب وأهله وهذا بطبيعة الحال يؤدي إلى كفاية الطالب وإلى إعانة أهله من مرتبه وقد لعبت الأوقاف الدور الاقتصادي بين الطبقات الفقيرة الذين لا يملكون المال الكافي لتعلم، وكذلك نال المدرسون قسطا كبيرا من وقف المدرسة وحتى السكن في المدرسة والطلاب أيضا، ومن خلال مساهمة بعض العلماء في بناء المدارس كانوا يخففون عن الدولة بعض المصاريف في إنشاء المدارس ، كذلك قامت المدارس بجذب العلماء والطلبة من كل أنحاء العالم الإسلامي، فحدث اندماج وتقارب بين المسلمين جميعا واختلطوا مع بعضهم في الدروس والسكن وهذا أدى إلى انتقال العادات والتقاليد ، كل طالب يحمل معه عاداته وتقاليده فكان له أثر اجتماعي وسياسي في التقريب بين أبناء العالم الإسلامي، وكذلك وجود المدارس في مدينة ما أدى إلى كثرة الوافدين إليها وكثرة الوافدين في المدينة أدى إلى حراك اقتصادي وبيع وشراء وتجارة مزدهرة بسبب كثرة الناس في المدينة.

---

[1]- عفاف صبرة، المدارس في العصر الأيوبي، ص188.

[2]- الذهبي، سير أعلام النبلاء، ج22، ص383 ؛ ابن العجمي الحلبي، كنوز الذهب، ج1، ص288.

obeikandl.com

ب- الدور العلمي والثقافي:

أن الأثر العلمي والثقافي للمدارس وعلمائها هو الأساس في بناء المدارس ، فقد كان من أسباب بناء المدارس في القاهرة وحلب وسائر أقطار العالم الإسلامي بالإضافة للأسباب السياسية والدينية وغيرها، سبب علمي وثقافي وهو تطور العلم الذي أدى إلى نشوء معاهد تعليمية ومدارس من اجل تدريس العلوم الدينية وغيرها، وتشجيع العلم بين أفراد المجتمع الإسلامي من خلال إفساح المجال أمام جميع طبقاته وذلك من خلال نظام الوقف الذي خصص جرايات ورواتب للطلبة والمدرسين، وكان لهذه المدارس وعلمائها في مدينتي القاهرة وحلب أثر علمي وثقافي ، فوجود المدارس في هاتين المدينتين يعتبر ظاهرة حضارية علمية وثقافية ، وقد تمثل أثرها العلمي والثقافي من خلال نقاط معينة مثل: فك العزلة الثقافية عن مصر الإسلامية، والقضاء على بقايا المذهب الشيعي في حلب والقاهرة من خلال بناء المدارس، وازدهار العلوم الدينية من خلال التركيز على تدريس هذه العلوم في المدارس بالدرجة الأولى، والمؤلفات التي ألفها علماء هذه المدارس وجعل القاهرة وحلب قبلة ومحاج العلماء والطلبة من كل أنحاء العالم الإسلامي لشهرة مدارسهما وعلمائها،أضف إلى ذلك تطور فن العمارة الإسلامية من خلال دخول فن بناء جديد تمثل في تخطيط المدارس وفن بناءها و أثرها في تخطيط المدن وكذلك ما رافق بناء المدارس من أبنية ملحقة بها من حمامات وسكن لطلبة ..... وسوف نتحدث عن هذه النقاط كلا على حدة:

1- فك العزلة الثقافية عن مصر الإسلامية:

ساهمت المدارس في العصر الأيوبي وبصورة فعالة من فك العزلة الثقافية التي كان الفاطميون قد فرضوها على المصريين وإعادة فتح الباب أمامها للاتصال بالعالم السني، وذلك عن طريق استقطابها لكثير من علماء البلاد الإسلامية الأخرى [1]،حيث كان التعليم في مصر في العصر الفاطمي خاضعا لإشراف الدولة وموجها نحو نشر المذهب الشيعي الذي يخالف المذاهب السنية في نواح عدة، فكانت مهمة الدولة الجديدة بجانب القضاء على المذهب

[1]- أيمن سلام، المدارس الإسلامية في مصر ، ص167-168.

obeikandl.com

الشيعي العودة بأهل مصر إلى المذهب السني ، ومهما يكن من أمر إدخال المدارس في مصر فإنه كان بمثابة انقلاب في الثقافة والبناء على السواء فقد زالت وصمة البدعة عن جبين مصر كما أخذت الثقافات المختلفة تتدفق على القاهرة مرة أخرى[1] .

هناك عاملان شجعا هؤلاء العلماء على الحضور إلى مصر، فمن ناحية الدينية كانوا يرون أن واجبهم الديني يحتم عليهم إعادة نشر المذهب السني بمصر وتعريف الناس بأصول دينهم. ومن ناحية أخرى كانوا يأنسون بما يلاقونه من حسن الجزاء والرعاية من السلاطين والأمراء[2]،نذكر من هؤلاء العلماء الذين قدموا إلى مصر: الحسن بن أبي الحسين النعماني الفارسي وهو أحد شيوخ المذهب الحنفي في زمانه أصله من العراق وكان مبرزا في النحو والعروض والقوافي والشعر والأخبار وعالما بتفسير القرآن والفقه و الأدب والحساب والمنطق والهيئة والطب توفي سنة 598هـ/1201م، فقد رآه العزيز عثمان بن صلاح الدين الأيوبي في القدس يدرس ، فسأل عن منزلته في العلم فأحضره ورغبه في المسير معه إلى مصر، وذهب معه إلى مصر مدة من الزمن[3] .

والشهاب الطوسي 521- 596هـ/1127-1199م أصله من طوس[4]،قدم بغداد وعظم قدره بها ثم حج، وأتى مصر سنة 579هـ/1184م ودرس بمنازل العز وكان له مكانة عالية بين العلماء، وتخرج به أئمة وكان جامعا للفنون غير محتفل بأبناء الدنيا. ودافع عن أوقاف المدارس وذب عن الناس وثبت، وكان له مناظرات مع الفقهاء والحكام، وكان معظما عند الخاصة والعامة ، وحمله أولاد السلطان على رقابهم[5] وأمين الدين التبريزي مدرس

---

[1]– عبد الغني عبد العاطي، التعليم في مصر، ص66.

[2]– المرجع نفسه، ص66.

[3]– السيوطي، طبقات المفسرين ، ص135–136.

[4]– طوس، بضم أوله وسين مهملة مدينة معروفة، تقع بين الري ونيسأبور في أول عمل خرا سان، وفيها دفن هارون الرشيد.(البكري الأندلسي، معجم ما استعجم ، ج3، ص898).

[5]– الذهبي، سير أعلام النبلاء، ج21، ص387 ؛ المقريزي، السلوك، ج1، ص161 ؛ السيوطي، حسن المحاضرة، مج2، ص350 ؛ أيمن سلام، المدارس الإسلامية في مصر ، ص169.

obeikandi.com

الناصرية الأولى عراقي الأصل قدم إلى مصر واستوطنها دهرا يؤلف ويدرس أعاد في المدرسة الشريفية، وكان من أجل مشايخ العلم في ديار مصر فقيها أصوليا عابدا زاهدا كثير العبادة ، إماما مناظرا مبرزا[1] .

والشيخ العز بن عبد السلام،شيخ الإسلام، سلطان العلماء ولد سنة 578،7هـ/1182م ، بلغ رتبة الاجتهاد قدم إلى مصر وأثناء مروره بالكرك تلقاه صاحبها وسأله الإقامة عنده فقال له: بلدك صغير على علمي ثم توجه إلى القاهرة ، فتلقاه الملك الصالح نجم الدين أيوب وكرمه وولاه التدريس في المدرسة الصالحية، وكثيرا من المناصب السياسية والعلمية الأخرى كخطابة جامع عمرو بن العاص والقضاء بها وبالوجه القبلي، وحدث له في مصر كثير من العوارض التي دعت الصالح نجم الدين أيوب إلى عزله من كافة مناصبه باستثناء وظيفته كمدرس بالمدرسة الصالحية توفي سنة 660هـ/1261م[2] .

يجدر الذكر بأن العلماء وفقهاء السنة قد بدؤوا بالمجيء إلى مصر في أواخر العصر الفاطمي مثل القاضي الفاضل ونجم الدين الخبوشاني، ولكن في العصر الأيوبي انضمت القاهرة إلى حاضرة الدولة العباسية السنية المذهب، وهذا أدى بطبيعة الحال إلى حرية التحرك والتدريس والتأليف فيها على المذاهب السنية الأربعة دون مضايقات من الحكام الأيوبيين، وهذا أدى بدوره إلى التمازج الثقافي.

كان المذهب الشيعي في مدينة حلب هو المسيطر ولكن بدأت عملية محاربة هذا المذهب ونشر المذهب السني فيها قبل العهد الزنكي، وذلك من خلال بناء المدرسة الزجاجية الشافعية عام517هـ/1123م [3]هي أول مدرسة بنيت بحلب في العصر الأرتقي 511-521هـ/1117-1127م ، وفي عهد نور الدين 541-569هـ/1146-1174م زادت

---

[1]– السبكي، طبقات الشافعية الكبرى، ج8، ص373 ؛ السيوطي، حسن المحاضرة، مج2، ص353.

[2]– المصدر نفسه، مج2، ص271–272 ؛ السبكي، طبقات الشافعية الكبرى، ج8، ص210 ؛ أيمن سلام، المدارس الإسلامية في مصر ، ص171–172.

[3]– ابن العجمي الحلبي، كنوز الذهب، ج1، ص270.

obeikandi.com

المدارس بكثرة وفي العصر الأيوبي بلغت أوجها فقد بدأت عملية فك عزلة حلب ثقافيا منذ وقت مبكر عن مدينة القاهرة، وكذلك قصدها العلماء من جميع أنحاء العالم الإسلامي مثل: عبد الله بن أبي عصرون الذي عهد إليه نور الدين محمود قضاء مصر بعد ضمها إلى دولته على يد قائده أسد الدين شيركوه سنة وقدم إلى حلب وبنى له ونور الدين مدرسة سميت باسمه، هي المدرسة العصرونية وكذلك بنى له عدة مدارس في مدن بلاد الشام حملت اسمه [1] والقاضي بهاء الدين بن شداد فقد قدم إلى حلب من الموصل وعني ابن شداد بجوانب العلم والحضارة فشجع على بناء المدارس ودور العلم وبنى مدرسة للشافعية ، ثم في قبالتها دار للحديث، قال ابن خلكان: وكانت حلب في ذلك الزمان قليلة المدارس ، وليس فيها من العلماء إلا نفر يسير، فاعتنى القاضي أبو المحاسن بترتيب أمورها، وجمع الفقهاء بها، وعمرت في أيامه المدارس الكثيرة[2] .

يمكن القول بأن مدينة القاهرة عادت إلى حضن الخلافة العباسية وأصبحت عاصمة الدولة الأيوبية السنية، وعادت القاهرة لتلعب دورها العلمي الثقافي في ظل الدولة العباسية مثلما كانت قبل الخلافة الفاطمية ، وفي العصر الفاطمي يجب أن نكون منصفين أن القاهرة كانت حاضرة وعاصمة سياسية للدولة الفاطمية وحاضرة علمية يقصدها العلماء من كل أنحاء العالم الإسلامي ولكن نشر وتدريس المذاهب السنية كانت نادرة وتتعرض للمضايقات لكن في مجالات العلوم الأخرى فقد كانت مزدهرة ازدهارا كبيرا، وكثرة المدارس بحلب والقاهرة أدت إلى استقطاب العلماء والطلبة من كل أنحاء العالم الإسلامي .

2- ازدهار العلوم الدينية :

كان لانتشار حركة بناء المدارس في العصر الأيوبي أثرا كبيرا في إحياء علوم أهل السنة في مصر وبلاد الشام، ولكن يجب التنبه إلى حقيقة هامة مؤداها أنه لم توجد سياسة محددة

---

[1]- المصدر نفسه، ج1، ص278-279 ؛ صادق أحمد داود جودة، المدارس العصرونية، ص100-162.

[2]- ابن خلكان، وفيات الأعيان، ج7، ص84 ؛ نور الدين عتر، القاضي المحدث ، ص56-57.

Obeikandi.com

ومنهجية واضحة قد اتبعتها تلك المدارس مجتمعة للوصول لذلك الغرض ، فقد اقتصرت حجة وقف كل مدرسة على حدة ، بالإشارة إلى المذهب الذي أنشئت من اجله دون الدخول في أية تفاصيل ولم يكن أمامنا بعد ذلك سوى التسليم بحقيقة مؤداها أن المناهج الدارسية في تلك المدارس آنذاك كانت غير ثابتة ، فقد كان المدرس هو الذي يحدد المنهج الذي يتبعه في إلقاء دروسه[1] .

كانت العلوم الدينية من علوم القرآن والتفسير والحديث والفقه وأصوله ثم يأتي التاريخ والجغرافية وغيرها، هي الشغل الشاغل للمدارس ، وقد استنفذت أكثر نشاطات المسلمين، وهذا أدى إلى عدم الاستفادة من العلوم الدنيوية التي كان للمسلمين فيها فضل كبير في العهود التي سبقت نشأة المدارس، ويبدو أن هذا كان استجابة لروح العصر بسبب اعتقاد الحكام ورجال الدين بأن ما غرسه الشيعة في نفوس الناس من عقائد يستدعي إعادة تأليف ونشر المؤلفات الدينية السنية على مذاهبها الأربعة والرد على أصحاب المذهب الشيعي، لذلك ركزوا على تدريس العلوم الدينية في المدارس لينشروا بمساعدتها عقائد أهل السنة تطبيقا للدين الصحيح[2] .

هيأت المدارس للعلماء الجو المناسب من أجل تدريس هذه العلوم وأحيائها وازدهارها والتأليف بها، من خلال نظام الوقف الذي أمن المسكن والملبس والمأكل ومرتب لكل عالم مدرس وطالب علم، ويدل هذا على أن المدارس في ذلك العصر كادت تبلغ حد الخوانق من ناحية انعزال بعض المدرسين بها بقصد التدريس والتأليف والتصنيف[3]،فمثلا عبد العظيم المنذري مدرس المدرسة الكاملية ، كان يدرس في هذه المدرسة ولا يخرج منها إلا لصلاة الجمعة حتى انه كان له ولد نجيب محدث فاضل توفاه الله تعالى، فصلى عليه الشيخ داخل

---

[1]– أيمن سلام، المدارس الإسلامية في مصر ، ص173.

[2]– كمال بدور، مملكة حلب، ص216.

[3]– علي نجم عيسى، الحياة الفكرية في حلب في العصر الأيوبي، ندوة الحركة العلمية والأدبية في حلب في العصر الأيوبي، تشرين الثاني ، حلب 2006م، ص67–68.

obeikandi.com

المدرسة وشيعه إلى بابها ثم دمعت عيناه وقال: أودعتك الله يا ولدي[1]،معنى ذلك أن هذه المدارس قد أصبحت المركز الأول للإشعاع الفكري.وقد تحدثنا عن العلوم وأشهر أعلامها ومؤلفاتهم في الفصل الرابع من هذا البحث.

3- المناظرات العلمية بين العلماء والفقهاء:

عرفت المناظرات العلمية منذ القديم ، وفي العصر الإسلامي ذاع صيت مناظرات الخليفة المأمون فقد خصص لها يوما في الأسبوع لمناظرة العلماء والفقهاء والمتكلمين[2].

كان لكثرة المدارس التي شيدت للمذاهب السنية الأربعة، أثر كبير في انتشار وازدهار المناظرات العلمية، فقد كان علماء هذه المذاهب يدخلون بين بعضهم البعض في مناظرات علمية شديدة، وكانت تتناول موضوعات متعددة من فقه ونحو وصرف ولغة، وكان من أهم أسباب تشجيع وانتشار هذه المناظرات ، هو اتخاذها وسيلة هامة من الوسائل العقلية المنظمة والفعالة في نفس الوقت للرد على معتنقي المذهب الشيعي والإقلال من شأن مذهبهم[3].

دارت في أيام صلاح الدين الأيوبي مناظرات دينية بين السنة والشيعة وبين الأشاعرة والحنابلة، وناصر صلاح الدين كسلفيه عماد الدين ونور الدين زنكي مذهب الأشعري[4].

كان أشهر من ذاع صيتهم في المناظرات العلمية التي تصل إلى حد إحداث الفتن في مصر في العصر الأيوبي، هم علماء وافدون من حواضر السلاجقة، وخاصة العنصر الفارسي، مثل نجم الدين الخبوشاني الذي كان كثير الفتن منذ دخوله مصر إلى أن مات فيها، بسبب

---

[1]- السبكي، طبقات الشافعية الكبرى، ج8، ص260.

[2]- الغزالي، التبر المسبوك في نصائح الملوك، مطبعة الآداب والمؤيد، القاهرة 1899م ، ص116.

[3]- منى محمد بهجت، أثر الحضارة السلجوقية في دول شرق العالم الإسلامي على الحضارتين الأيوبية والمملوكية بمصر، ج3، مكتبة زهراء الشرق، القاهرة 2002م، ج1، ص135-137.

[4]- اهيف سنو، الحياة الثقافية والأدبية في عصر صلاح الدين، ندوة بمناسبة مرور ثمانمائة سنة على وفاة صلاح الدين، المعهد العالي للدراسات الإسلامية، جمعية المقاصد الخيرية الإسلامية، بيروت د.ت، ص186.

مجادلته وتكفيره للحنابلة كابن الصأبوني وزين الدين ابن نجيه، يكفرونه ويكفرهم. وأيضا الشهاب الطوسي الذي أحدث سنة 580هـ/1184م الفتن بين الأشاعرة والحنابلة لأنه ينكر بعض المسائل في علم الكلام على الحنابلة[1] .

ظهر أثر المناظرات العلمية والجدلية في تراث علمي من العصر الأيوبي، مثل المصنف الذي خلفه لنا الملك المعظم عيسى ت 624هـ/1126م الذي اعتنق المذهب الحنفي وتعصب له، وصنف كتابا سماه "السهم المصيب في الرد على الخطيب البغدادي أبي بكر أحمد بن ثابت فيما تكلم به في حق أبي حنيفة في تاريخ بغداد" [2] .

وكانت المناظرات العلمية تحدث في قصور الحكام بين العلماء ، وكان الحكام يشجعون مثل هذه المناظرات، مثل السلطان الكامل محمد ت 635هـ/1237م كان يناظر العلماء ويمنحهم فمن أجاب قدمه وحظي عنده. وكان يعقد كل ليلة جمعة مجلسا لأهل العلم عنده ويجلس معهم للمباحثة [3]،وكان السلطان المعظم تورانشاه يجادل العلماء ويناظرهم في القاهرة سنة 647هـ/1249م وخاصة مع الشيخ العز بن عبد السلام والشريف عماد الدين وسراج الدين الآمدي وغيرهم[4] .

كان الملك الظاهر غازي 589-613هـ/1193-1216م حاكم حلب أيضا كثير الإطلاع على أخبار الملوك، ومحبا للعلماء فقربهم، وكان بلاطه يعج بالعلماء والفقهاء من أمثال القاضي بهاء الدين بن شداد وتابع حفيد الظاهر، الملك الناصر الثاني 634-658هـ/1236-

---

[1]– المقريزي، السلوك، ج1، ص88 ؛ منى محمد بهجت، أثر الحضارة السلجوقية، ص137.

[2]– المرجع نفسه، ص138.

[3]– المقريزي، السلوك، ج1، ص260.

[4]– المصدر نفسه، ج1، ص354 ؛ منى محمد بهجت أثر الحضارة السلجوقية، ص138.

obeikandi.com

1260م تقريب العلماء في بلاطه وتشجيع العلماء والتعليم فكان بلاطه عامر بالعلماء والفضلاء والأدباء والشعراء حتى مجيء المغول [1] .

يمكننا القول فأن هذه المناظرات قد تطورت بوجود المدارس والعلماء الذين كانوا على مذاهب عدة الأمر الذي أدى إلى انتشار هذه المناظرات داخل المساجد والمدارس وقصور الحكام، وهذا يدل على وجود البلاط في كل من مدينة القاهرة وحلب، وثقافة حكامه وكثرة علماء هاتين المدينتين ومدارسهما التي أثمرت عن هذه النتيجة.

أدى مجيء الطلاب من بلدان العالم الإسلامي على اختلاف لغاتهم الأصلية ، طلبا للعلم والمعرفة، كان عليهم أن يتقنوا اللغة العربية ، اللغة التي انزل بها القرآن الكريم ، واللغة الرسمية للدولة كي يتمكنوا من فهم العلوم والآداب التي تدرس في المدارس، وقد أدى انتشار المدارس على المذاهب الأربعة إلى وفود الطلاب إلى المدارس من كل فج عميق حبا بالعلم ورغبة في تحصيله، فاشتغلوا بالبحث والدرس ونسوا الضغائن والأحقاد المذهبية وتقاربت نفوسهم كما تقاربت أجسادهم، وصاروا يعيشون ويدرسون في مكان واحد [2] .

4- تطور فن العمارة الإسلامية :

أن كثرة المدارس في بلاد الشام ومصر وجميع أنحاء العالم الإسلامي ، نتج عنه اختلاف وتشابه في عناصرها المعمارية والزخرفية ، فمدارس حلب الأيوبية تشابهت في بعض عناصرها المعمارية مع مدارس القاهرة الأيوبية واختلفت في بعض العناصر البسيطة، وقد بقي من مدارس القاهرة مدرستين ، المدرسة الكاملية والمدرسة الصالحية. وفي مدينة حلب بقي ثمان مدارس تقريبا هي : الشاذبختية ، الأنصارية، الظاهرية، السلطانية، الكاملية، الفردوس، الكمالية العديمية، الشرفية، وهذا يعود ربما لأن القاهرة منذ العصر الفاطمي أصبحت عاصمة لخلافة أو لدولة قوية ترعى الخليفة وهذا يؤدي إلى نمو وتطور معماري

[1]- كمال بدور، مملكة حلب ، ص209-210.

[2]- حسين أمين، المدرسة المستنصرية، مطبعة شفيق، بغداد 1960م، ص118-119.

مستمر وبطبيعة الحال سوف يؤدي إلى انداثار احياء ومباني وتشيد مباني جديدة مكانها أو لها قيمة معمارية أو علمية أكثر فيؤدي إلى هجر المباني السابقة ومن ثم اهمالها واندثارها ،أما في حلب الأمر مختلف تمام لأنها مدينة صغيرة قياسا بالقاهرة ولم تكن عاصمة مثل القاهرة وكان يحكمها أمراء محليون لن يصلوا إلى مستوى الخلفاء في السخاء في البناء والعمارة فحافظت المباني القديمة نوعا ما على متانتها ، وسوف نتحدث عن هذه المدارس من الناحية المعمارية.

- مدارس القاهرة الباقية من العصر الأيوبي:

1- المدرسة الكاملية:

تقع هذه المدرسة –الآن- بشارع المعز لدين الله بحي النحاسيين بالقاهرة، وكان في موضعها قديما القصر الغربي الفاطمي. منشئ المدرسة هو الملك الكامل بن الملك العادل الأيوبي 615-635هـ/1218-1237م [1] كانت هذه المدرسة وقت إنشائها تتكون من إيوانين رئيسيين إحداهما بالجهة الشمالية الغربية والآخر بالجهة الجنوبية الشرقية وبينهما صحن مستطيل مكشوف شكل (1).

- **الإيوان[2] الشمالي الغربي:** مساحته مستطيلة إذ يبلغ عمقه 10.35م واتساعه 9.56م[3]وكان يشرف على صحن بفتحة معقودة بكامل اتساعها، وبني هذا الإيوان من مداميك حجرية ضخمة يبلغ سمك جدران الإيوان 2م تقريبا، ويغطيه سقف على هيئة قبو[4]

---

[1]- المقريزي، الخطط، ج4، ص211.

[2]– الإيوان، البيت المؤرخ أي المرتفع البناء غير مسدود الوجه، أي انه قاعة مسقوفة بقبوة مفتوح مقدمها على بهو بعقد. (أحمد فكري، مساجد القاهرة ، ج2، ص86).

[3]– حسني محمد نويصر، العمارة الإسلامية في مصر عصر الأيوبيين والمماليك، مكتبة زهراء الشرق، القاهرة د.ت، ص69-70.

[4]– قبو : بفتح القاف وسكون الباء – جمع أقباء – الطاق المعقود بعضه إلى بعض في شكل قوس ، والقبوة : القبو الصغير المستطيل ، ومجموعة عقود متلاصقة في بناء السقف من الحجر أو الآجر وغيرهما ، ويقصد بالقبو بالمصطلح الأثري سقف مقوس أو معقود ذو أشكال مختلفة تم استخدامه في تغطية كثير من الأجزاء البنائية في العمارة الدينية والمدنية والعسكرية ، ولا سيما في

obeikandl.com

مدبب من الآجر المغطى بطبقة من الملاط، أما سمك القبوة فهو متدرج يبلغ عند المنبت فوق الجدران مترا ، وينخفض عند القمة إلى نصف متر [1] وبصدر الإيوان أي في الضلع الجنوبي الشرقي دخلة مستطيلة عميقة يبلغ اتساعها 3.75م وعمقها 5م يفتح عليها ثلاث دخلات أخرى: واحدة في الصدر واثنتان في الجانبين اتساع كل دخلة 1.30م. وتدل الشواهد على أنها كانت تستخدم كملقف كان يغطيه سقف خشبي مائل له فتحة تتجه نحو الشمال لتستقبل الهواء وتدخله إلى الإيوان لتجديد الدورة الهوائية داخله[2] .

- **الإيوان الجنوبي الشرقي:** اندثر هذا الإيوان تماما ولم يعد منه سوى جزء صغير جدا من جداره الجنوبي الغربي، أما بقيته أزيل في القرن الثامن عشر وحل مكانه مسجد صغير هو الذي يطل بواجهاته الآن على شارع المعز لدين الله [3] .

- **الصحن**[4]**:** سماوي مكشوف مستطيل المسقط (19.90م×15.44م) و يشغل جزء منه حاليا ميضأة[1] الجامع السابق، وقد كشفت الحفائر التي أجرتها لجنة حفظ الآثار العربية

الايوانات والأروقة والحجرات و الممرات والمداخل والمزملات و نحو ذلك. (عاصم رزق، معجم مصطلحات العمارة، ص231-232)

[1]- أحمد فكري، مساجد القاهرة ، ج2، ص56-57 ؛ آمال العمري، علي الطايش، العمارة في مصر الإسلامية (العصريين الفاطمي والأيوبي) ، مكتبة الصفا والمروة، القاهرة 1996م، ص121.

[2]- المرجع نفسه، ص121.

[3]- حسني محمد نويصر، العمارة الإسلامية ، ص71.

[4]- الصحن : صحن الدار- جمع صحون وأصحن - وسط ساحتها ،والصحن في العمارة الدينية كالمسجد والمدرسة و الخانقاه ونحوها مساحة مكشوفة أو مغطاة تتصل بها من الناحية الجنوبية برواق القبلة ، ومن النواحي الثلاث الباقية بالأروقة الثلاثة الأخرى . أما في العمارة المدنية فكان الصحن هو نواة الخان و القيسارية والربع والقصر والدار ونحوها ، إليه يفضي الباب الخارجي ، وعليه تنفتح العقود والشبابيك ، وفيه تعمل الفوارات وتزرع الأشجار وحوله تتوزع الحواصل وسائر المرافق ، وقد ساعد مناخ الدول الإسلامية الحار على عمل مساحات مكشوفة واسعة في كل الأبنية الدينية والمدنية على السواء لحماية الأماكن المسقوفة فيها من حرارة الشمس ونورها الساطع الوهاج من ناحية ، والمحافظة على الاتصال المباشر بالهواء الطلق من ناحية أخرى وعمل على تخفيف من حدة الضوء الواصل إلى الأروقة والإقلال من نسبة الغبار المتصاعد من الطرقات المحيطة بالمبنى ، والمحافظة على الدفء شتاء والرطوبة صيفا وغيرها من فوائد . (عاصم رزق ، معجم مصطلحات العمارة ، ص167)

obeikandl.com

بالجهة الجنوبية الغربية من الصحن عن أساسات ست خلاوي التي كان يقيم بها الطلبة الدارسون، وكان يتقدمها مظلة تعتمد على أعمدة تشرف على الصحن ببائكة معقودة لتحمي خلاوي الطلبة من حرارة الشمس في الصيف ومن أمطار الشتاء، وكان يحيط بفتحات شبأبيك الخلاوي المطلة على الصحن بإطارات زخرفية جصية. حاليا في متحف الفن الإسلامي بالقاهرة. أما الجهة الشمالية الشرقية للصحن فلم يعثر بها على أية أساسات وذلك لمجاورة هذه الجهة لحمام السلطان أينال شيده الأمير بيسرى سنة 659هـ/1260م أي بعد إنشاء المدرسة الكاملية بحوالي 37سنة تقريبا [2].

[1]– ميضأة : هي المكان الذي يتوضأ منه الناس في الأبنية المساجدية وتوجد في كل مسجد ومدرسة ، وهي عبارة عن أحواض عادية مجصصة بالخافقي لغرف الماء ، ثم تطورت تطورا كبيرا حتى صارت عبارة عن قباب في وسط الصحون تحيط بها مقاعد يتقدمها حنفيات للوضوء ،أول ميضأة في مصر كانت ملحقة بجامع ابن طولون من خارجه سن 263–265هـ/876–879م . (عاصم رزق ، معجم مصطلحات العمارة ، ص312)

[2]– مصطفى عبد الله شيحه، الآثار الإسلامية في مصر "من الفتح العربي حتى نهاية العصر الأيوبي" ، ط1، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة 1992م، ص227–228 ؛ آمال العمري، علي الطايش، العمارة في مصر، ص122.

obeikandl.com

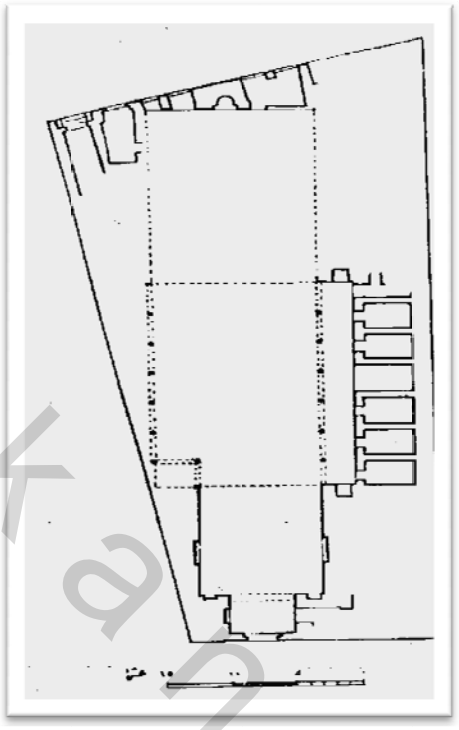

شكل رقم (1) محاولة لجنة حفظ الآثار العربية لرسم تخطيط المدرسة الكاملية

3- المدرسة الصالحية :

تقع البقايا من عمارة هذه المدرسة الكبيرة بشارع المعز لدين الله الفاطمي، إذ اندثرت أواوينها ومعالمها القديمة باستثناء جزء من واجهتها ومنارتها الأثرية، وقد تمت أعمال البناء فيها سنة 614هـ/1243م [1] .

شيدت هذه المدرسة على مساحة واسعة من الأرض لا تقل عن ستة آلاف متر مربع تتكون من مدرستين كل واحدة منهما تتكون من إيوانين بينهما صحن أوسط مكشوف سماوي خصصت المدرسة الجنوبية "اليمنى" لمذهبي الحنابلة والحنفية، والشمالية "اليسرى" لمذهبي

[1]– مصطفى عبد الله شيحه، الآثار الإسلامية في مصر ، ص235.

obeikandl.com

المالكية والشافعية، ويفصل بين المدرستين دهليز يعرف الآن بحارة الصالحية، له فتحة مدخل كان يغلق عليها باب حديدي، ويقع على جانبي الدهليز بابان: أحدهما يؤدي للمدرسة الجنوبية والأخرى يؤدي للمدرسة الشمالية. وهذا المدخل يتوسط الواجهة الشمالية الغربية (الرئيسية) لمدارس الصالحية، ويقسمها إلى قسمين: القسم الأيسر وهو واجهة المدرسة الشمالية، والقسم الأيمن وهو يشتمل على واجهة المدرسة الجنوبية شكل(2)[1].

تقع واجهة المدرسة الشمالية على يسار المدخل الرئيسي ويبلغ طولها 38م وتضم تسع دخلات رأسية، يعلو الدخلات الثلاث الأولى عقد منكسر مشع يتوسطه دائرة مفصصة لكل دخلة منهم، بينما نفذت الدخلات الست الأخرى في مستوى أقل ارتفاعا من الدخلات الثلاث الأولى وهي دخلات ذات شكل مستطيل، وتوجد تسعة شبابيك مستطيلة أسفل الدخلات السابقة بواقع شباك أسفل كل دخلة يعلوه عتب من صنجات معشقة يعلوه عقد العاتق مزين بإطار زخرفي حجري منقوش بزخارف نباتية، وتشرف الشبابيك الثلاثة الأخيرة من الواجهة على الإيوان الشمالي الغربي للمدرسة وهو إيوان المالكية، وتنم زخارف الأعتاب والعقود وتنوعها على مدى ما وصل إليه الفنان الأيوبي من دقة ومهارة عالية وذوق رفيع في فن زخرفة الحجر بحيث لم نجد زخرفة شباك تماثل الأخرى. وهذه سمة من سمات الفن الإسلامي وهي التنوع [2].

أما واجهة المدرسة الجنوبية وهي تقع على يمين المدخل الرئيسي، ويتشابه هذا القسم مع القسم الأيسر من باب الدخول الرئيسي فيما عدا أنه أقل امتداد منه إذ يبلغ طوله 33.5م ويشتمل على ثمان دخلات فقط بها شبابيك مماثلة للقسم الأيسر، كما تميز الشباك السابع أنه

---

[1]- رأفت محمد النبراوي، الآثار الإسلامية العمارة والفنون والنقود، المعهد العالي للدراسات الإسلامية، القاهرة 2003م، ص81.

[2]- آمال العمري ، علي الطايش، العمارة في مصر ، ص128 ؛ رأفت محمد النبراوي الآثار الإسلامية ، ص81-82.

openkandil.com

أكثر اتساعا وارتفاعا لأنه يطل على إيوان الحنابلة أي على الإيوان الشمالي الغربي للمدرسة الجنوبية [1] .

والواجهة التي يبلغ طولها مائة متر يتوسطها الباب الرئيسي، وهي حافلة بالنقوش والكتابات التي يتوسطها باب تعلوه مئذنة وقد نقل الباب الخشبي إلى متحف الفن الإسلامي بالقاهرة، أما عن المادة الخام المستخدمة في هذه الواجهة فهي من الحجر المنحوت. وتعلو المدخل مئذنة وتتكون من مربع مجوف مبني من الآجر طول ضلعه حوالي 5.40م وارتفاعه حوالي 10.40م ، تنتهي القاعدة المربعة بشرفة خشبية ترتكز على كوابيل خشبية تحيط بالطابق الثاني للمئذنة. وهو مثمن المسقط بكل ضلع من أضلاعه الثمانية دخلة معقودة بعقد منكسر يتوسطها فتحة باب على هيئة عقد ذي حليات. ويتوج المئذنة قمة على هيئة المنجرة مفصصة ترتكز على صفين من الكرانيش المقرنصة ذات الدلايات [2] .

قام كريزويل بعمل تخطيط لهذه المدرسة اعتمد فيه على بقاياها شكل(3). وجعل تخطيطه لبناءين مستقلين يفصل بينهما حارة الصالحية، ولكل مدرسة وحداتها المستقلة وكل منها تتكون من إيوانين ، ففي المدرسة الأولى (في الناحية الجنوبية) إيوان للحنابلة آخر للحنفية ويفصل بينهما صحن متسع، والثانية الشمالية إيوان للمالكية وآخر للشافعية ويفصل بينهما صحن كبير [3] .

يوجد ضريح الملك الصالح نجم الدين أيوب بالركن الشمالي من المدرسة الشمالية وقد ذكر المقريزي [4] بأن الضريح قد حل مكان قاعة شيخ المالكية [5] .

---

[1]– آمال العمري، علي الطايش، العمارة في مصر ، ص128.

[2]– أبو الحمد محمود فرغلي، الدليل الموجز لأهم الآثار الإسلامية القبطية في القاهرة، ط3، الدار المصرية اللبنانية، القاهرة 1996م، ص199–200، آمال العمري، علي الطايش، العمارة في مصر ، ص131.

[3]– Greswell ،op, p46.

[4]– الخطط، ج4، ص221.

[5]– حسني محمد نويصر، العمارة الإسلامية ، ص85–86.

obeikandi.com

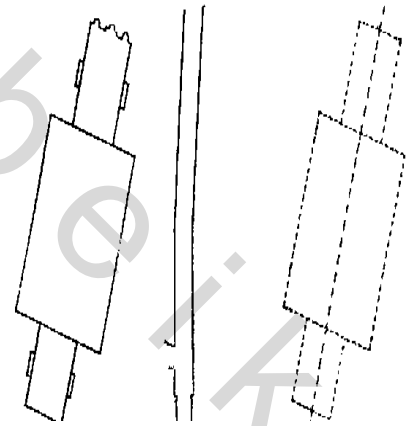

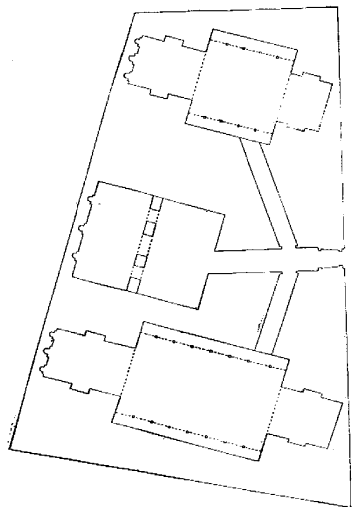

الشكل رقم (2) الشكل رقم (3)محاولة كريزويل لرسم تخطيط افتراضي لمدارس الصالحية

- سمات المدارس المصرية في العصر الأيوبي:

- بنيت بالحجارة المصقولة وقد عني برصها وتنظيمها عناية فائقة.
- استعملت الفقرات المزررة في العقود المستقيمة والمنبطحة بكثرة.
- استعملت الزخارف الجصية المتطورة عن الزخارف الفاطمية.
- استخدم الرخام في كسوة المحاريب، والفسيفساء أيضا. كما في المدارس السورية.
- استخدم الخط النسخي في الكتابة على اللوحات المنقوشة على المباني ونراها على بوابة المدارس الصالحية ، وهي بهذا تتفق مع المدارس السورية، رغم ان الخط الكوفي ظل مستعملا في بعض الأحيان.
- استخدمت الدخلات في الواجهات . وقد استعملت هذه الطريقة منذ العهد الفاطمي في جامع الأقمر [1] .

[1]- أحمد فكري ، مساجد القاهرة ، ج2، ص80،64- 84 .

obeikandl.com

- استعلت المآذن المكونة من طوابق ، وكانت طريقة بنائها استمرارا لمآذن العهد الفاطمي[1] .

ت- مدارس حلب الأيوبية الباقية : هناك ثمان مدارس باقية من العصر الأيوبي في مدينة حلب، ولكن سوف نتحدث على ثلاث منها كنماذج لفن عمارة المدارس في مدينة حلب، حتى نستخلص بعض الميزات المعمارية والفنية المشتركة بين مدارس القاهرة وحلب وأهم هذه المدارس:

1- المدرسة الشاذبختية (الجوانية) :

شيد هذه المدرسة شاذبخت معتوق الملك العادل محمود بن زنكي سنة 589هـ/1193م يصف أبو ذر هذه المدرسة قائلا: "محرابه عجيب ولها إيوان و خلاوي للفقهاء"[2]

تتكون هذه المدرسة من صحن في وسطه بركة مثمنة، وفي شرقيه غرفة صغيرة تحتوي على بئر وممر يقود إلى غرفتين صغيرتين بينهما درج يؤدي إلى السطح، وأنه كان هناك غرفتان أكبر منهما تنفتحان مباشرة على الصحن، أما في الجهة الغربية فكان هناك أربعة أبواب تؤدي إلى أربع غرف سقفت كل منها بقبو متطاول، ويعتقد أن هذه الغرف قديمة من أصل البناء ومفتوحة على رواق، ويوجد فيها مدفن شكل (4) [3] .

يوجد فيها بيت للصلاة مكون اسكوب[4] واحد، جوفه أربعة أمتار وطول جدار القبلة فيه ثمانية أمتار ، تعلوه قبة ، ويتوسطه محراب مجوف ، وكان يطل على البهو بثلاثة عقود،

---

[1]- لمياء الجاسر ، مدارس حلب الأثرية ، ص35.

[2]- كنوز الذهب، ج1، ص345-346.

[3]- لمياء الجاسر، مدارس حلب الأثرية ، ص164-166 ؛

- Greswall , op , vol 2 ,p111. .

[4]- اسكوب، هو الممر الموازي (الأفقي أو العرضي) في بيت الصلاة لجدار القبلة الذي يمتد بين الأعمدة أو الدعامات . (محمد حمزة الحداد، دراسة المصطلحات الفنية للعمارة الإسلامية، ط1، مكتبة زهراء الشرق، القاهرة 2001م، ص41).

obeikandl.com

ويبدو أنه كان يقابله في مؤخرة المسجد إيوان مسقوف بقبوة مدببة، مفتوح على البهو بعقد فتحته ستة أمتار [1].

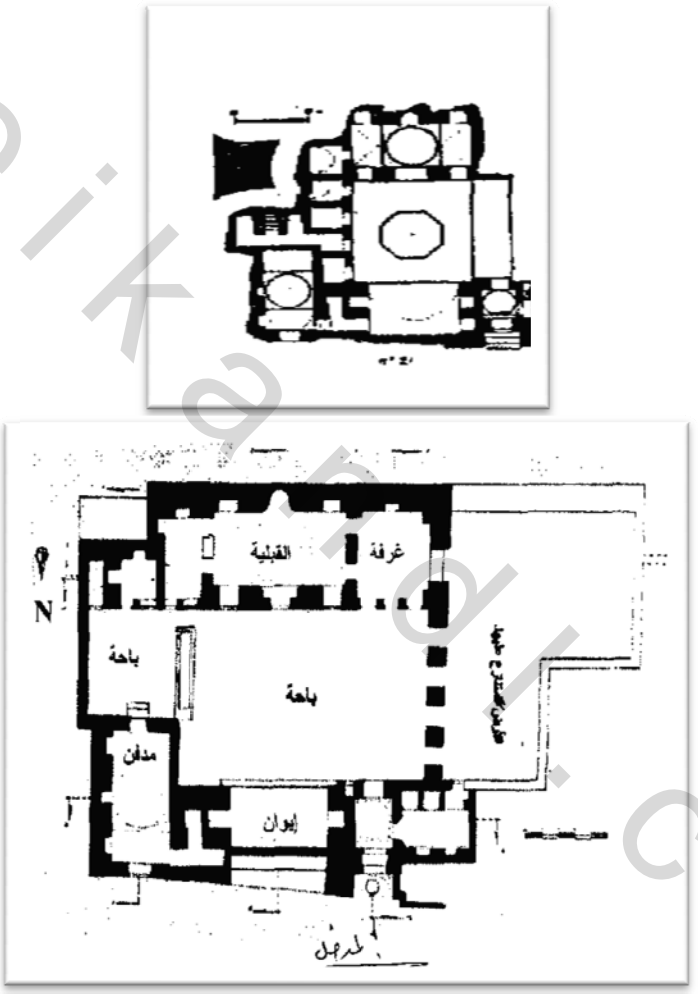

الشكل رقم (4)

[1]– أحمد فكري، مساجد القاهرة ، ج2، ص107.

obeikandl.com

2- المدرسة الظاهرية البرانية:

أنشأها السلطان الملك الظاهر غازي، وانتهى عمارها سنة 610هـ/1213م ، وانشأ إلى جانبها تربة ليدفن فيها من يموت من الملوك والأمراء [1] .

تتكون هذه المدرسة على شكل مستطيل طوله 38م، وعرضه 29م، وللمدرسة بيت للصلاة من اسكوب واحد طول جدار القبلة فيه 15م، وجوفه 4 أمتار ونصف المتر. وهو يتصل بمجنبة له على البهو طولها مثل طوله وعرضه ثلاثة أمتار، وهي تطل على البهو بعقود ثلاثة تقابل العقود الثلاثة المفتوحة بين رواقها وبين بيت الصلاة. ويتصل هذا البيت عن كل من جانبيه الشرقي والغربي بقاعة مربعة تقريبا، ضلعها خمسة أمتار ، وكانت كل من هاتين القاعتين تضم ضريحا، أو كانت إحداهما تتخذ قاعة لشيخ المدرسة والأخرى تضم ضريحا، وللمدرسة بهو فسيح طوله 18م، وعرضه 15م. كانت تحيط به على كل من جانبيه الشرقي والغربي غرف للطلاب وقاعات إحداها في الجانب الشرقي، على هيئة إيوان مفتوح على البهو، أما مؤخر المدرسة فكان يتوسطه المدخل، وتتقدمه سقيفة شبيهة بمجنبة بيت الصلاة، كما كان يضم على جانبي هذا المدخل غرفا صغيرة أخرى وقاعات شكل (5)[2] .

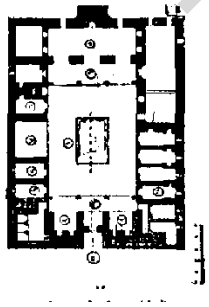

الشكل رقم (5)

4- مدرسة الفردوس:

[1]- ابن شداد عز الدين ، الأعلاق الخطيرة، ج1، ص107.

[2]- أحمد فكري، مساجد القاهرة ، ج2، ص111-112.

obeikandl.com

شيدت هذه المدرسة السيدة ضيفة خاتون بنت الملك العادل وزوجة الملك الظاهر غازي سنة 633هـ/1235م،ومكان المدرسة خارج المدينة من جهة الجنوب في محلة الفردوس[1].

أن مدرسة الفردوس هي أكبر مدرسة وأكثرها تطورا بين مدارس حلب، مخططها مستطيل الشكل 44م على 55م مع صف من الأعمدة على الجوانب الثلاثة وتقدر المساحة المفتوحة13.09م على 17.45م يحاط الصحن بصفوف من الأعمدة صنعت خصيصا للمدرسة، ومبلطة بالمرمر الأبيض و الأسود ، ويوجد في وسط الصحن حوض ماء كبير مؤلف من ثمانية أحجار رائعة شكل (6)[2] .

يوجد فيها 6 اواوين ، إيوان كبير يطل على الباحة الرئيسية يلاصقه إيوان آخر كبير خلفه. واثنان صغيران متقابلان في كل البناءين الخلفيين . الكبير ينفتح على الباحة الرئيسية ويضم في جدرانه الثلاثة خزنا جدارية يعلو كلا منها نجفة مستقيمة فوقها قوس عاتق مثلثي، ويدور على جدران الإيوان نصوص تحض على العبادة. أما الخلفي فهو أكثر عمقا سد جزء من واجهته بجدار استبدل بمنجور ألمنيوم مؤخرا وهذا الإيوان مسقوف ، وبقية الاواوين بقبو متطاول مدبب، وفيها قاعتان تشغلان الطرفين الشرقي والغربي من الباحة، وهما متماثلتان ومتناظرتان. وتنقسم كل منهما بواسطة قوسين مدببين إلى 3 أقسام، هنالك 7 فتحات في الجدار الشرقي من القاعة شرقي الباحة وغربي الباحة [3] .

يتصدرها بيت للصلاة طول جداره 25م ، ويزيد جوفه على 7 أمتار، ويحف به من كل جانبيه قاعة مربعة، كانت كل منهما ضريحا[4]،ليس فيها غرف للمجاورين تتناسب مع هذه

---

[1]– عبد القادر الريحاوي، العمارة الإسلامية ، ص139.

[2]– عامر رشيد مبيض، حلب ترحب بكم " جولة أثرية" ، دار القلم العربي ، حلب 2006م، ص47–48.

- Rana Jalabi Holdijk , Al- Madrasa al-Firdaus , The American University in Cairo,p55-64.

[3]– لمياء الجاسر، مدارس حلب الأثرية، ص213–214 ؛

- Rana Jalabi, op, p60-70.

[4]– أحمد فكري، مساجد القاهرة، ج2، ص117 ؛

- Rana Jalabi , op, 71-78.

obeikandl.com

المدرسة الكبيرة ، ويعتقد أنها كانت في الطابق الأول الذي تهدم، ويوجد فيها محراب مصنوع من الرخام الملون المتشابك على أشكال هندسية بديعة الصنع، يعتبر من أندر المحاريب في العالم الإسلامي. ويوجد فيها زخارف كتأبية كثيرة [1].

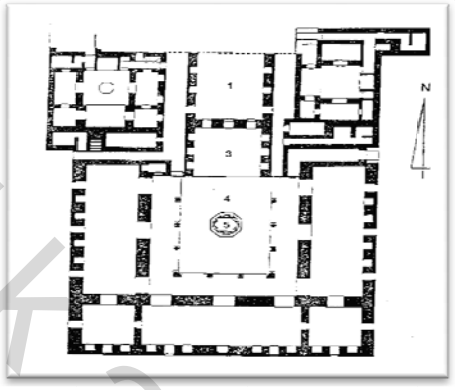

الشكل رقم (6)

- سمات المدارس السورية الأيوبية :

استنتج علماء الآثار والباحثين الذين قاموا بدراسات مستفيضة حول المدارس السورية ، التي تعود إلى ما قبل عام (669هـ/ 1270م) بعض السمات المميزة لها وهي :

- ذات شكل مستطيل متجه نحو القبلية تماما [2] .

- ذات حجم صغير بشكل عام. يعود ذلك لأسباب منها : وجدت كي تخدم مذهبا واحدا، وبنيت بالعشرات فلم يكن من الضروري أن تكون كبيرة [3] .

- بيت الصلاة فيها يتكون من قاعة مستطيلة تشغل عادة الجانب الجنوبي من الصحن وتنفتح معظمها بعقد ثلاثي، الأوسط أكبرها، أو في عقد خماسي.

- سقفت بيوت الصلاة في مدارس حلب بقبة تقوم على مربعة وترتكز على قبوين يقعان إلى جانبيها ، وتمتاز قبة بيت الصلاة عن بقية قباب المدرسة عادة بارتفاعها واختلاف طرازها.

---

[1]– عبد القادر الريحاوي، العمارة الإسلامية، ص139.

[2] - Greswell , The Muslim Architecture of Egypt , vol2 , p120.

[3]– لمياء الجاسر ، مدارس حلب الأثرية ، ص31.

obeikandl.com

- لم تضم على الأغلب مآذن ، و إن وجدت فيها فتعود إلى عهود لاحقة.

- هناك ضريح متصل مع المدرسة منذ تاريخ مبكر . كذلك استعملت المحاريب الرخامية الملونة ، والبوابات المقرنصة [1] .

ويرى Greswell[2] أن المدرسة الرباعية المقسمة إلى أربعة أجزاء بواسطة أربعة أواوين لا وجود لها في سوريا ، وأن المدارس السورية تحتوي على إيوان واحد إذا كانت مخصصة لمذهب واحد ، وتحتوي على إيوانين إذا كانت على مذهبين .

-الاختلافات بين المدارس السورية و المدارس المصرية المعاصرة لها هي :

- اهتمت المدارس المصرية بزخرفة الواجهات، وكذلك وجود المآذن فيها.

- كانت القبلية بالمدارس السورية مستطيلة تمتد على طول الضلع الجنوبي من الباحة ، أما في المدارس المصرية كانت القبلية على شكل إيوان .

- لم تضم الصالحية مدفنا ، ثم وضع فيها ضريح الملك الصالح مكان المدرسة المالكية. ولا نستطيع أن نؤكد أو ننفي وجود المدفن في المدارس الأيوبية المصرية الأخرى.

الصفات المشتركة لأنظمة المدارس في القاهرة وحلب حتى سنة 641هـ/1243م

- الصفات المشتركة بين المدارس المصرية والمدارس السورية :

- أن جدار القبلة هو العامل الرئيسي في تخطيط هذه المدارس جميعا، وأن حدودها الداخلية تنتظم في مستطيل أو مربع قائم على خط هذا الجدار، وفي كل مدرسة بيتا للصلاة ن وان هذا البيت يتصدر بناءها ، وانه أكثر قاعاتها أهمية واتساعا، ويلاحظ أن بيوت الصلاة تمتد في موازاة جدار القبلة أكثر من امتدادها في اتجاهه، وأنها صغيرة الحجم، نسبيا، وأنها لا تنقسم إلى أساكيب وبلاطات ومربعات، بل يتكون داخلها من فسحة واحدة بدون أعمدة[3]

---

[1]- المقرنصة : عنصر إنشائي وزخرفي يعمل عادة من أحجار تنحت وتجمع في أشكال ذات نتوءات بارزة تؤلف حليات معمارية تتكون من صواعد وهوابط تشبه خلايا النحل تتدلى في طبقات مصفوفة بعضها فوق بعض في أماكن مختلفة من العمائر الإسلامية مثل أركان القباب وشرفات المآذن و الواجهات والنوافذ والعقود والأعمدة والمداخل وغير ذلك من الأجزاء التي كانت تصلح لقبول ه العنصر المعماري و الفني. (عاصم رزق، معجم مصطلحات العمارة ، ص293)

[2] - The Muslim Architecture of Egypt , vol2 , p120,121.

[3]- أحمد فكري، مساجد القاهرة، ج2، ص118-120.

obeikandi.com

- ومن الصفات المشتركة بين المدارس أيضا البهو [1]،ويوجد في كل المدارس بهوا مكشوفا فسيحا، مربعا أو مستطيلا أو قريبا من ذلك . وتبلغ مساحة البهو نصف مساحة المدرسة أو ثلث المدرسة أو ربع المدرسة [2] .

- يوجد في كل المدارس بيوتا للطلاب من غرف صغيرة حجما، بعضها من طابق واحد ومعظمها من طابقين، وعددها يتفاوت من مدرسة لأخرى، ولكنها يتناسب مع حجمها ومع سعة بهوها وبيت صلاتها، وكان يوجد في هذه المدارس قاعات للكتب وقاعات لتذكير الدروس وتناول الطعام وجلوس المدرسين والنظار والمشرفين والكتبة ، وتضم كل مدرسةِ بناء في كل جانب من جوانبها تصلح لمطبخ ومخبز وحمام وغير ذلك من المنافع العامة [3] .

- يوجد في معظم المدارس أيضا ضريحا أو أكثر، وان موضع هذا الضريح وبناءه لا يقتطع جزءا هاما من بناء المدرسة، وإنما روعي أن ينحصر في ركن من الأركان، وان يحتل من البناء قدر ما تحتله قاعة من قاعات المدرسة، وأصبحت هذه الظاهرة منتشرة في جميع البلاد الإسلامية حتى ما كادت تبنى مدرسة إلا وأعد فيها مكان ضريح لمنشئها أو لأحد أفراد أسرته[4] .

- استعمال الحجارة المنحوتة جيدا بالبناء.
- احتوائها على العناصر الأساسية للمسقط الأفقي – قبلية – غرف مجاورين ....
- استخدام الكتابات النسخية في المداخل .
- استخدام الرخام في زخرفة المحاريب [5].

---

[1]– البهو : لهذه اللفظة دلالات مختلفة لكنها مرادفة لمصطلح البلاطة وهي المكان الفارغ بين صفوف الأعمدة .

[2]– أحمد فكري، مساجد القاهرة ، ج2، ص120.

[3]– المرجع نفسه، ج2، ص121.

[4]– المرجع نفسه، ج2، ص121.

[5]– لمياء الجاسر ، مدارس حلب الأثرية ، ص35.

obeikandl.com